كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

من أسرار التقديم والتأخير في سورة الأعراف من خلال تفسير أبي السعود العمادي

"دراسة بلاغية تحليلية"

إعداد

د/ الحسن محمد أبوضيف

مدرس البلاغة والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

(العدد الأربعون)

(إصدار أكتوبر ـ الجزء الثاني)

(١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م)

من أسرار التقديم والتأخير في سورة الأعراف من خلال تفسير أبي السعود العمادي "دراسة بلاغية تحليلية".

الحسن محمد أبو ضيف عبدالمجيد.
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، جامعة الأزهر، قنا، مصر.
البريد الإلكتروني:Al- HassanAbdelMajid.4119@azhar.edu.eg

الملخص:
تناولت في هذا البحث بعض الأسرار البلاغية في قضية التقديم والتأخير في سورة الأعراف، من خلال كتاب "إرشاد العقل السليم إلي مزايا القرآن الكريم"، للإمام أبي السعود العمادي. وذلك لكون موضوع (التقديم والتأخير) من أهم مباحث علم المعاني. حيث شغل العلماء – أقدمين ومحدثين – وتشاطرته الدراسات النحوية والبيانية علي حد سواء في محاولة للوقوف علي أسراره ومراميه. كما ضرب المفسرون في هذا الفن بسهم وافر؛ فقد تمرسوا هذا الفن حين تصديهم لشرح كتاب الله وإيضاح معانيه، وبيان مظاهر الجمال والإعجاز فيه، كما قمت بإبراز ما للسياق من دور وأثر في التقديم والتأخير. وذلك من خلال بيان أسرار التقديم والتأخير في سياق الحديث عن امتنان المولي – تبارك وتعالي – علي خلقه بالنعم. وفي سياق الحديث عن قصص الأنبياء – عليهم السلام – كذلك في سياق الحديث عن أحوال المعاندين.

الكلمات الافتتاحية: **التقديم، التأخير، أهميته، السياق، البيان.**

Among the secrets of presenting and delaying in Surat Al-A`raf through the interpretation of "a rhetorical and ،Abu Al-Saud Al-Emadi analytical study".

Al–Hassan Muhammad Abu Dhaif Abdul–Majid.
Department of Rhetoric and Criticism، Faculty of Islamic and Arabic Studies for Boys ، Al–Azhar University، Qena ، Egypt.
Email: Al–HassanAbdelMajid.4119@azhar.edu.eg.

Abstract

In this research، I dealt with some rhetorical secrets. This is because the topic (presentation and delay) is one of the most important topics of semantics. Where scholars – both ancient and modern – occupied and shared grammatical and environmental studies alike in an attempt to find out its secrets and modernizers. The commentators have also struck in this art with a plentiful arrow; They practiced this art when they confronted them to explain the Book of God، clarify its meanings، and clarify the manifestations of beauty and miraculousness in it، I also highlighted the role and impact of context in presenting and delaying. And that is by explaining the secrets of submission and delay in the context of talking about the gratitude of the Lord – Blessed and Exalted be He – for His creation with blessings. And in

the context of talking about the stories of the prophets – peace be upon them – as well as in the context of talking about the conditions of the stubborn ones. .

Keywords: **Introduction، Delay، Importance، Context، Statement.**

المقدمـــة

الحمد لله الذي أنزل علي عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصلاة والسلام علي من شرَّفه رب العالمين بما تنزَّل به الروح الأمين علي قلبه بلسان عربي مبين، ليكون نذيرا ورحمة للعالمين.

وبعـــد،،،

فلما كان القرآن الكريم معجزة عقلية خالدة، ظل علي امتداد الأزمان بِكْراً في معانيه وألفاظه وتراكيبه ووسائله وأهدافه، يحوم حوله العلماء من كل عصر فيأخذون بعض الفرائد من جواهره، ويرتشفون قطرات من جليل هديه وتوجيهه، كما ظل محل التدبر ومناط التأمل وغاية الغايات.

لذلك كان أهم ما يتاح لطالب العلم والباحث فيه أن يوظِّف ما حصَّله من مسائل العلم في خدمة هذا الكتاب العزيز إظهارا لمقاصده، وتوضيحا لمراميه، وتجليةً لبعض أسراره المُستكِنَّة وراء ألفاظه وجُمَله، وإبرازًا لبعض ملامح إعجازه المستمر أبد الدهر، فالقرآن الكريم علي مدي الدهر موضعٌ لنظر يطول، وفكرٍ يجول، وتأملٍ يتبصَّر، وغَوْصٍ وراء الأستار والأسرار.

واختيارُ أيِّ جزءٍ من القرآن ليكون موضوع البحث والدرس أمرٌ شديدُ الصعوبة؛ لأن القرآن الكريم ليس فيه فاضلٌ وأفضل، وبليغٌ وأبلغ، بل القرآنُ كلُّه علي حدٍّ سواء من أوله إلي آخره فضلاً وهديًا، وبلاغةً إعجازًا، فحيثما وجَّهْتَ بصيرَتك وجدْتَ نورًا يهدي، وهَدْيًا يدل، ودِلالةً تقود وتوصل إلي خيرى الدنيا والآخرة.

ولما كان موضوع (التقديم والتأخير) من أهم مباحث علم المعاني، حيث شغل العلماء – أقدمين ومحدثين – وتشاطرته الدراسات النحوية والبيانية علي حد

سواء في محاولة للوقوف علي أسراره ومراميه. كما ضرب المفسرون في هذا الفن بسهم وافر؛ فقد تمرسوا هذا الفن حين تصديهم لشرح كتاب الله وإيضاح معانيه، وبيان مظاهر الجمال والإعجاز فيه، وفي مقدمة هؤلاء الإمام أبو السعود العمادي فقد كان له جَوْلاتٌ غنيَّةٌ جدًا في فهم التقديم في القرآن الكريم والكشف عن أسراره المختلفة، وذلك من خلال كتابة (إرشاد العقل السليم إلي مزايا القرآن الكريم) حيث عالج فيه التقديم بمنهج حر واسع النظرة وقد كان – رحمه الله – مُولَعاً بتقصِّي الأسرار التي يفيدها التقديم فتراه يثبت لك في الموضع الواحد سرا أو سرين أو ثلاثة. وهذه طريقة جديرة بالتقدير لفهم أسرار الكتاب الكريم وفهم مقومات الجمال الفني فيه.

ومن هنا فقد وقع اختياري علي هذا الموضوع (من أسرارِ التقديمِ والتأخيرِ في سورة الأعراف من خلال تفسير أبي السعود العمادي – دراسةٌ بلاغيةٌ تحليليةٌ) محاولا الكشف عن رافد مهم من روافد الإعجاز البياني للقرآن الكريم من خلال البحث عن الأغراض المختلفة لهذا التقديم والتأخير، من خلال استقراء بعض مواضع التقديم في السورة من خلال كتابه (إرشاد العقل السليم)، لافتًا النظر إلي دور السياق العام والخاص، وإلي أهداف السورة وموضوعاتها، وأثرِ ذلك كلِّه في التقديم والتأخير.

ومن ثم فقد كان منهجي في هذا البحث هو المنهج الاستقرائي التحليلى القائم علي النظر والبحث في الأسلوب القرآني للوقوف علي أسرار التقديم والتأخير فيه، وذلك من خلال التتبُّع والرصد لما ذكره الإمام أبو السعود في بعض مواضع التقديم في السورة، ولما كتبه الآخرون، ثم الشرح والتحليل مع التعقيب علي كلام الإمام أبي السعود والحكم عليه بالموافقة أو المخالفة المؤيَّدة بالأدلة والبراهين في كلتا الحالتين.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتي في ثلاثة فصول، تسبقها مقدمة، وتمهيد، وتعقبها خاتمة، وفهارس فنيه.

- فهذه هي المقدمة:
- وأما التمهيد فيشتمل علي مطلبين:
- الأول: أهمية التقديم والتأخير علي ضوء السياق والمقاصد القرآنية.
- الثاني: التعريف بالإمام أبى السعود وكتابه.
- الفصل الأول: أسرار التقديم والتأخير في سياق الحديث عن امتنان المولي – تبارك وتعالي – علي خلقه بالنعم.
- الفصل الثاني: أسرار التقديم والتأخير في سياق الحديث عن قَصص الأنبياء – عليهم السلام –.
- الفصل الثالث: أسرار التقديم والتأخير في سياق الحديث عن أحوال المعاندين.
- الخاتمة: وفيها عَرْضٌ لأهم النتائج التي توصل إليها البحث.

والله أسألُ أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن ينال القبول،

وآخرُ دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

التمهيـــــد

- ويشتمل علي مطلبين؛

- المطلب الأول ـ أهميةُ التقديمِ والتأخير علي ضوء السياق والمقاصدِ القرآنية.
- المطلب الثاني ـ التعريفُ بالإمامِ أبي السعود وكتابهِ.

المطلب الأول

أهمية التقديم والتأخير

علي ضوء السياق والمقاصد القرآنية

إن سياقات القرآن الكريم تحمل دقائق نفيسة ولطائف بالغة لأسلوب التقديم والتأخير، ويتنوع هذا الأسلوب وتتغير دلالته تبعا لتغير السياق وحاجه المقام، فما كان لكلمة أن تتقدم مكانها دون غاية معنوية وهدف دلالي تريد أن تثبته في الجملة، والقرآن الكريم كلام الله المعجز وبيانه المحكم يشتمل علي هذه الأساليب التي ينبغي الوقوف علي أسرارها ودلائلها.

ومن ثم فقد تحدث عن أهمية التقديم والتأخير الكثير من العلماء ـ القدامي والمحدثين ـ ومن أولئك صاحب (الكتاب) حيث يقول عنه: (وكأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم؛ وهم ببيانه أعني؛ وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم)[1].

وهذا التعليل لم يعجب الشيخ عبد القاهر الجرجاني الذي قال: (ولم يذكر سيبويه في ذلك مثالا، وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال: إنه قدم للعناية، ولأن ذكره أهم من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية، ولم كان أهم، ولتخيلهم ذلك صغُرَ أمر التقديم والتأخير في نفوسهم، وهَوَّنوا الخطب فيه؛ حتى إنك لتري أكثرهم يري تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف، ولم تر ظنَّاً أزري علي صاحبه من هذا وشبهه).[2]

وعرض صاحب (الصناعتين) للتقديم والتأخير فقال – وهو يتحدث عما ينبغي استعماله في تأليف الشعر – :(وينبغي أن تُرتَّبَ الألفاظ ترتيبا صحيحا،

---

(1) سيبويه ، الكتاب علق عليه ووضع حواشيه: د/ إميل يعقوب، جـ١، ص٦٨، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولي ١٩٩١م.

(2) دلائل الإعجاز الإمام عبد القاهر الجرجاني، تصحيح وتعليق: محمد رشيد رضا، صـ٨٤ – ٨٥، دار المعرفة – بيروت، ١٩٨١م.

فيقدم منها ما كان يحسن تقديمه، ويؤخر ما يحسن تأخيره، ولا يقدم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا يؤخر منها ما يكون التقديم به (أليق)[١] وهذا الكلام موجز ومفيد، ولكن الأذواق تتباين فيما يعد حسنا تقديمه.

وحدثنا شيخ البلاغة العربية عن أهمية هذا الموضوع فقال: (هو بابٌ كثيرُ الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسعُ التصرف، بعيدُ الغاية، لا يزال يَفْتَرُّ لك عن بديعِه، ويُفضِي بك إلي لطيفه، ولا تزال تري شِعراً يروقُكَ مسمعُه، ويلطُفُ لديك موقعُه، ثم تنظر فتجدُ سبَب أن راقَكَ ولطُفَ عندك، أن قُدِّمَ فيه شئ، وحُوِّلَ اللفظُ عن مكانٍ إلي مكان)[٢].

وقد جعله الشيخ في نوعين أو وجهين:

(تقديمٌ يقال: إنه علي نيِّة التأخير، وذلك في كل شئ أقررته مع التقديم علي حُكْمِهِ الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمتَه علي المبتدأ، والمفعول إذا قدمته علي الفاعل. وتقديم لا علي نية التأخير، ولكن علي أن ننقل الشئ عن حكم إلي حكم، وتجعله بابا غير بابه، وإعرابا غير إعرابه، وذلك أن تجئ إلي اسمين يحتمل كُل واحد منهما أن يكون مبتدأ، ويكون الآخر خبرا له، فتقدم تارة هذا علي ذاك، وأخري ذاك علي هذا)[٣].

وتحدث عن هذا الموضوع أيضا الإمام الرازي وجعله في أَحَدَ عَشَرَ فصلاً.[٤]

---

(١) الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبوالفضل إبراهيم، صـ١٥١، دار إحياء الكتب العربية – القاهية، الطبعة الأولي١٩٥٢م.

(٢) دلائل الإعجاز، صـ٨٣.

(٣) المرجع السابق ،الصحيفة نفسها.

(٤) نهاية الإعجاز ودراية الإيجاز، الفخر الرازي، تحقيق ودراسة: د/ بكري الشيخ أمين، صـ٢٩٨ – ٣٢٠، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الأولي ١٩٨٥م.

وتناوله السكاكي أيضا في أكثر من موضع في (مفتاحه)، فعرض له في مباحث الفن الثاني (المسند إليه) مبينا أغراض تقديمه التي منها: الأهمية، والتشويق، والتفاؤل[١].

وعرض لأغراض تقديم المسند وتأخيره في الفن الثالث، والتي منها: التخصيص، وأن يكون متضمنًا للاستفهام. وعرض في فصل (متعلقات الفعل) في الفن الثالث إلي اعتبارات التقديم والتأخير وأسهب فيها. [٢]

وتحدث عن أهمية التقديم والتأخير الإمام الزركشي، حيث قال عنه: (هو أحد أساليب البلاغة، فإنهم أتوا به دلالة علي تمكنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسنُ موقع وأعذبُ مذاق.[٣]

وعندما تحدث الإمام السيوطي عن الوجه الحادي عشر من وجوه إعجاز القرآن الكريم وهو (تقديم بعض ألفاظه وتأخيرها في مواضع) عَدَّ السياق العامل الأول في سبب هذا التقديم والتأخير[٤].

ومن المحدثين يقول الدكتور عبدالعظيم اتطعني: (التقديم بعامة – سِمَةٌ أسلوبية، لها عظيم الأثر في روعة الأسلوب وإبرازه في صورة حكيمة من الوفاء بالمعاني ومطابقتها لمقتضي الحال، سواء أكانت هذه الحال ملاحظا فيها جانب

(١) مفتاح العلوم، السكاكي، صـ ٨٤ – ٨٥، بدون تاريخ.

(٢) ينظر :المرجع السابق صـ٨٣.

(٣) البرهان في علوم القرآن، تخريج وتعليق: مصطفي عبدالقادر عطا، جـ٣، صـ٣٢٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

(٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه وصححه: أحمد شمس الدين، جـ١، صـ١٢٨، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولي ١٩٨٨م.

المخاطبين أم جانب المخاطب، وهو من أقدر الفنون علي كشف خبايا النفوس وسبر أغوارها، ويُطَوِّع المعاني للاعتبارات المناسبة التي يراها البليغ حَرِيَّةً بالكلام)[1].

وإذا كان الغرض الرئيس من علم المعاني – كما يقول الإمام السكاكي – الاحتراز من الوقوع في الخطأ في تطبيق الكلام علي ما يقتضي الحال ذكره. [2] فإن تركيب الكلام تقديماً وتأخيراً، وحذفاً وذكراً، وتعريفاً وتنكيراً....الخ، له دوره في مطابقة المقال لمقتضي الحال، فقد يقتضي الحال تقديم ما حقه التأخير أو تأخير ما حقه التقديم، خروجا عن مقتضي الظاهر والمألوف ولكنه لا يخرج عن دائرة الكلام البليغ، الذي يقوم علي المتكلم والمخاطب، ومقام الخطاب.

ولأهمية هذا الموضوع – أيضا – فقد تناوله أولئك الذين كتبوا عن المتشابه اللفظي في القرآن، أو عن مُشْكِل القرآن، ذلك أن التقديم والتأخير في الكلمات أو الجمل في الآيات المتشابهة التي تتحدث عن موضوعات واحدة يعد موهِماً ومشكِلاً؛ ولذلك لابد من دفع هذا الإيهام من خلال ضم هذه الآيات المتماثلة في الموضوعات المختلفة تقديما وتأخيرا مع مراعاة أهداف السور وموضوعاتها وسياقاتها التي جاءت فيها، وإن من شأن هذا أن يكشف لنا عن وجه رائع من وجوه إعجاز القرآن الكريم بدلا من أن تكون هذه الفروق بين الآيات مَثْلَباً ينفذ من خلاله الطاعنون في قدسية القرآن. يقول د/ فاضل السامرائي: (إن فَنَّ التقديم والتأخير فنٌّ رفيع يعرفه أهلُ البصر بالتعبير والذين أوتوا حظًا من معرفة مواقع الكلام وليس ادعاءً يُدَّعَي أو كلمةً تقال – وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن – كما في غيره – الذروةَ في وضع الكلمات الوضعَ الذي تستحقه في التعبير، بحيث تستقر في مكانها المناسب....كلُّ ذلك مراعي فيه سياقُ الكلام والاتساقُ العام في التعبير علي أكملِ وجه وأبهى صورة)[3].

❁❁❁❁

(1) خصائصُ التعبيرِ القرآني وسماته البلاغية، جـ٢، صـ٧٩، مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة الأولي ١٩٩٢م.

(2) ينظر: مفتاح العلوم، مرجع سابق، صـ٧٠.

(3) التعبير القرآني، صـ٥٢، دار إعمار – عمان، الطبعة الرابعة ٢٠٠٦م.

المطلب الثاني

التعريف بالإمام أبي السعود وكتابه

اسمه، ونسبه، ومولده:

هو محمد بن محمد بن مصطفي العمادي، المولي أبو السعود: مفسِّرٌ، أصوليٌّ، شاعرٌ، عارفٌ باللغات العربية والتركية والفارسية. من فقهاء الحنفية وعلماء الترك، ولد بقرب القسطنطينية في شهر صفر سنة سِتٍّ وتسعينَ وثَمَانِمائة.(١)

نشأته وحياته العلمية:

هو من بيت عُرِفَ أهلُه بالعلم والفضل حتى قال بعضهم فيه: تربَّى في حِجْر العلم حتى رَبَي، وارتضع ثدي الفضل إلي أن ترعرع وحَبَا، ولازال يخدم العلوم الشريفة حتى رحُبَ باعُه، وامتد ساعِدُه، واشتَّد اتساعُه.

قرأ كثيرا من كتب العلم علي والده وتتلمذ لكثير من جِلَّه العلماء، فاستفاد منهم علما جما، ثم طارت سمعته، وفاضت شهرته، وعظم صيتُه، وتولي التدريس في كثير من المدارس التركية، ثم قُلِّدَ قضاء بروسّة ثم نقل إلي قضاء القسطنطينية، ثم نقل إلي قضاء ولاية العسكر في ولاية روم أيلي، ودام علي قضائها مدة ثمان سنين، ثم تولي أمر الفتوى بعد ذلك فقام بها خير قيام بعد أن اضطرب أمرها بانتقالها من يد إلي يد، وكان ذلك سنة ٩٥٢هـ، ومكث في منصب

(١) ينظر: طبقات المفسرين، للأَدْنَهْ وِي، تحقيق: سليمان ابن صالح الخَزِّي، صـ٣٩٨، مكتبة العلوم والحكم، السعودية الطبعة الأولي ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ومعجم المفسرين من صدر الإسلام وحتي العصر الحاضر لعادل نويهض، قدم له: مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد، جـ٢، صـ٦٢٥، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٨م.

الإفتاء نحوا من ثلاثين سنة أظهر فيها الدقة العلمية التامة والبراعة في الفتوى والتفنن فيها[١].

شيوخه، ومؤلفاته، وتلاميذه:

أخذ عن علماء عصره وفي مقدمتهم أبوه والذي قرأ عليه حاشية التجريد، وشرح المفتاح، وشرح المواقف من أوله وآخره. ومن شيوخه أيضا العلامة المولي قادري جلبي، وغيرهم كثير.[٢]

صنف – رحمه الله – (إرشاد العقل السليم إلي مزايا القرآن الكريم) في التفسير، وكان تفسيره من أمثال الكشاف والبيضاوي من أكمل التفاسير.

ومن مؤلفاته: (تحفة الطلاب) في المناظرة، و (رسالة في المسح علي الخفين) و(رسالة في تسجيل الأوقاف) و(قصة هاروت وماروت) [٣]

ومن تلاميذه: العلامة السيد الشريف المولي محمد المعروف بالسعودي قاضي حلب، وآمد، وغيرها. [٤]

وفاته: توفي رحمه الله – بمدينة القسطنطينية ودفن بجوار سيدنا أبي أيوب الأنصاري – رضي الله عنه – وذلك في أوائل جمادي الأولي سنة ٩٨٢هـ (اثنين وثمانين وتسعمائة من الهجرة.[٥]

---

(١) ينظر: البدر الطالع بمحاسن مَنْ بعد القرن السابع، لمحمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني، جـ١، صـ٢٦١، دار المعرفة – بيروت، بدون تاريخ، والأعلام، لخير الدين الزركلي، جـ٧، صـ٥٩، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢م.

(٢) ينظر: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، لنجم الدين الغَزِّي، تحقيق: خليل االمنصور، جـ٣، صـ٣١ دار الكتب العلمية – ببيروت، الطبعة الأولي، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

(٣) ينظر: الأعلام، للزركلي، جـ ٧، صـ٥٩.

(٤) ينظر: الكواكب السائرة، للغزِّي، جـ٣، صـ٣٢.

(٥) ينظر: المرجع السابق، الجزء نفسه، الصحيفة نفسها.

التعريف بكتاب (إرشاد العقل السليم إلي مزايا القرآن الكريم):

يعتبر تفسير الإمام أبي السعود من أشهر كتب التفسير بالرأي، وهو غاية في بابه، ونهاية في حسن الصوغ وجمال التعبير، كشف فيه صاحبه عن أسرار البلاغة القرآنية، بما لم يسبقه أحد إليه، ومن أجل ذلك ذاعت شهرة هذا التفسير بين أهل العلم، وشهد له كثيرٌ من العلماء بأنه خير ما كتب في التفسير، فصاحب (العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم) يقول عنه في كتابه: (قد أتي فيه بما لم تسمح به الأزمان، ولم تُقْرَع به الآذان، فَصَدَقَ المثُل السائر: كم ترك الأولُ للآخر)[1]. ونُقِلَ عن صاحب الكشف أنه قل: (انتشرت نُسَخُهُ في الأقطار، ووقع له التلقي بالقبول من الفحول الكبار، لحسن سبكه، وصدق تعبيره، فصار يقال له: خطيب المفسرين. ومن المعلوم أن تفسير أحد سواه بعد الكشاف والقاضي لم يبلغ إلي ما بلغهُ من رتبة الاعتبار. [2]

ولذا كثرت مزايا هذا التفسير وتعددت، ومنها:

١-عنايته بالكشف عن بلاغة القرآن وسر إعجازه. فهو كثير العناية بسبك العبارة وصوغها، مولع كل الولوع بالكشف عن سر الإعجاز في النظم والأسلوب، وبخاصة في باب (الفصل والوصل) و (الإيجاز و الإطناب)، و(التقديم والتأخير)، و(الاعتراض والتذييل)، كما أنه يهتم بإبداء المعاني الدقيقة التي تحملها التراكيب القرآنية بين طياتها، مما لا يكاد يظهر إلا لمن أوتي حظًا وافرًا

---

(١) العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم، المولي علي بن القاضي أوزن بالي بن محمد، تحقيق: أحمد عبد الوهاب الشرقاوي، صـ٣٤، الطبعة الأولي، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، جـ١، صـ١، مكتبة المثني – بغداد، ١٩٤١م.

من المعرفة بدقائق اللغة العربية، ويكاد يكون صاحبنا هو أول المفسرين المبرِّزين في هذه الناحية.

٢- اهتمامه بالمناسبات وإلمامه ببعض القراءات.

٣- إقلاله من رواية الإسرائيليات.

وعلي الجملة فالكتاب دقيق غاية الدقة، بعيد عن خلط التفسير بما لا يتصل به، غير مسبوق فيما يضطر إليه من التكلم عن بعض النواحي العلمية، وهو مرجع مهم يعتمد عليه كثير ممن جاء بعده من المفسرين، وقد طبع هذا التفسير مرارا، وهو يقع في خمسة أجزاء متوسطة الحجم، وهذا ما دعاني لاختيار أسرار التقديم والتأخير في سورة الأعراف من خلال هذا السفر الماتِع مادةً لبحثي.

الفصل الأول

أسرار التقديم والتأخير في سياق الحديث عن

امتنان المولي تبارك وتعالي - علي خلقه بالنعم

❁❁❁❁

- ويشتمل علي مبحثٍ واحد:

- المبحث الأول: أسرار التقديم في سياق الحديث عن امتنان المولي – تبارك وتعالي- علي خلقه بنعمة التمكين في الأرض وتهيئة أسباب المعاش فيها.

❁❁❁❁

المبحث الأول

أسرار التقديم في سياق الحديث عن امتنان المولي - تبارك وتعالي- علي خلقه بنعمة التمكين في الأرض وتهيئة أسباب المعاش فيها

﴿الموضع الأول﴾

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [1].

يقول الإمام أبو السعود – رحمه الله – عن سرّ التقديم في هذا الموضع. (وكلٌ واحد من الطرفين – يعني (لَكُمْ فِيهَا) – متعلق به – يعني بالجعل في قوله: (وَجَعَلْنَا) – أو بمحذوف وقع حالًا من مفعوله المنكَّر إذ لو تأخر لكان صفة له، وتقديمهما علي المفعول مع أن حقهما التأخير عنه لما مرَّ غير مرة من الاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلي المؤخر لا سيما عند كون المقدم مُنْبِئًا عن منفعة للسامع تبقي مترقِّبة لورود المؤخَّر فيتمكن فيها عند الورود فضلَ تمكُّن. وأما تقديم (اللام) علي (في) فلما أنه المنبئ عما ذُكر من المنفعة فالاعتناء بشأنه أتمّ والمسارعة إلي ذكره أهمّ) [2].

﴿ موضع الشاهد في الآية ومغزاه ﴾

من خلال ما ذكره الإمام أبو السعود ـ رحمه الله ـ نجد أنه قد أشار إلي موضعين للتقديم في الآية الكريمة، وهما:

الأول ـ تقديم الظرفين (لكم ـ فيها) علي مفعول (جَعَلَ) وهو (معايش).

---

[1] الأعراف، الآية ١٠.

[2] إرشاد العقل السليم إلي مزايا القرآن الكريم، أبو السعود العمادي، جـ٣، صـ ٢١٤،دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

الثاني ـ تقديم (اللام) علي (في) في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ ويري الإمام أن سرَّ التقديم في الموضعين هو الاعتناء والاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلي المؤخر.

ومن ثمَّ فنوع التقديم هنا هو من تقديم المتعلّقات.

﴿ الدراسة والتحليل ﴾

تأتي هذه الآية الكريمة في سياق أمر المولي – تبارك وتعالي – أهل مكة باتباع ما أُنزل إليهم ونهيهم عن اتباع غيره مع بيان وخامة عاقبته بالإهلاك في الدنيا والعذاب المخلِّد في الآخرة[1].

ومن ثم تأتي هذه الآية تذكيرًا لهم بما أفاض الله عليهم من فنون النعم الموجبة للشكر ترغيبًا في الامتثال بالأمر والنهي إثر ترهيب.

ومن هنا فإنه لمَّا كان المقام في الآية الكريمة للامتنان وعتاب بني آدم ومؤاخذتهم علي قلة شكرهم فقد حفل النظم الكريم بكل ما يفي بحق المقام ومقتضيات السياق ومن ذلك:

بناء النظم علي التوكيد بلام القسم وقد ((وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ..)) وقد أفاد التوكيد هنا – تذكير الغافلين عن كونه من نعم الله عليهم. ومن ثَمَّ يأتي توكيد الخبر بلام القسم وقد ـ هنا ـ تنزيلاً للذين هم المقصود من الخطاب منزلة من ينكر مضمون الخبر؛ لأنهم لمّا عبدوا غير الله كان حالهم كحال من ينكر أن الله هو الذي مكَّنهم من الأرض أو كحال من ينكر وقوع التمكين من أصله[2]. وقد آثر

---

[1] الأعراف، الآيات، ٣–٩.

[2] ينظر: التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، جـ٨، صـ ٨٤، الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤م.

النظم القرآني التعبير بالتمكين في قوله ((وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ..)) أي: جعلنا لكم فيها مكانا وقرارًا، أو ملكناكم فيها وأقدرناكم علي التصرف فيها[١].

وأصلُ التمكين جعلُ الشئ في مكان، ومن ثمَّ فإطلاقه علي الإقدار –هنا– علي سبيل الكناية أي: جعلنا لكم قدرة علي أمور الأرض وخوّلناكم التصرف في مخلوقاتها وذلك بما أودع الله في البشر من قوة العقل والتفكير التي أهّلته لسيادة هذا العالم والتغلُّب علي مصاعبه.

وعليه فالسرُّ البلاغي للتعبير بالكناية هنا هو شمول التمكين لمعاني التمليك والتسليط والقدرة علي تحصيل أسباب كل خير وسعادة دنيوية كانت أو أخروية، وكمال استعداد المعرفة والمحبة والطلب والسير إلي الله ونيل الوصول والوصال، ومن ثمَّ تكريم الإنسان وتأهيله لخلافة الله في الأرض. وبهذا يكون المعني ((وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ..) (أي: سيَّرْناكم ووهبنا لكم في خلافة الأرض مالم نمكن أحدًا غيركم في الأرض من الحيوانات ولا في السماء من الملائكة) [٢]. وهذا أدخل في مقام الامتنان والعتاب الوارد فيه الآية.

ولذا عبَّر بقوله (فِي ٱلۡأَرۡضِ) دون (علي ٱلۡأَرۡضِ) للدلالة علي شمول ونفاذ التمليك والتسليط، والقدرة، هذا مع ما تشي به (أل) في قوله (ٱلۡأَرۡضِ) من معني الاستغراق أي (إن التمكين حاصل في الأرض ولو بالاعتبار) [٣] وهذا يتساوق مع

---

[١] ينظر: تأويل محاسن القرآن، القاسمي، جـ٥، صـ ١١، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولي ١٤١٨هـ – .

[٢] روح البيان، إسماعيل حقي (أبو الفداء) جـ٣،صـ ١٣٩، دار الفكر – بيروت، دون تاريخ.

[٣] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، جـ ٧، صـ ٣٦١، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ..

التعبير بنون العظمة في (مَكَّنَّاكُمْ) و(وَجَعَلْنَا لَكُمْ). وعليه فقد آثر النظم الكريم تقديم (لكم ـ فيها) علي (معايش) مع أن الأصل أن يقدم المفعول به علي غيره من المتعلّقات والنكتة البلاغية للتقديم هنا هي أن المقصود من ذكر خلق المعايش كونُها نعما منه – سبحانه– علي الناس جَعَلَهم مالكين لها، متمكنين من الانتفاع بها، لا كونُها مجعولةً ومخلوقة، ولا شك أن كون المعايش لهم أهمّ من كونها في الأرض التي مكَّنهم فيها، فههنا ثلاثة أشياء: المعايش، وكونُها الوطن الذي يعيش فيه المرء، وكونُ المرء مالكا لها ومتصّرفا فيها، ولا مشاحّة في أن الأهمّ عند كل إنسان أن يكون مالكًا لما يعيش به، ويتلوه أن يكون ذلك في وطنه، ويتلوه أنواعه وأن تكون كثيرة[1].

وهذا السرُّ للتقديم هو ما وُفق إليه الإمام أبو السعود وقد أصاب في ذلك وهو – أيضًا – ما أفاده تركيب الكلمات في الآية وما يشي به التنكير والجمع في (معايش) من دلالة علي التنويع والكثرة؛ فالمعايشُ: جمع معيشة، وهي ما يُعاشُ به من المطاعم والمشارب وغيرها وما تكون به الحياة، فهي مشتقة من العَيْش وهو الحياة، وأصل المعيشة اسم مصدر عاش قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[2]. سُمِّي به الشيء الذي يحصُل به العيش تسمية للشيء باسم سببه. فهو مجاز مرسل بعلاقة السببية[3].

---

[1] ينظر تفسير المنار، محمد رشيد رضا، جـ٨، صـ ٢٩٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

[2] طه، من الآية ١٢٤.

[3] ينظر فتح البيان في مقاصد القرآن، القِنَّوْجِيّ، تقديم ومراجعة: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، جـ٤، صـ٣٣٧، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.، والتحرير والتنوير، جـ٨، صـ٣٤.

والسرُ البلاغيُّ للمجاز المرسل ـ هنا ـ هو التأكيد علي أهمية هذه المعايش للإنسان وبيان مدي توقف حياته عليها؛ فهي سببُ بقائه في الأرض وبدونها تتوقَف حياته وينتهي دوره وخلافته في الأرض.

يقول الشيخ الشعراوي: (رحمه الله) (و"معايش" جمعُ معيشة، والمعيشةُ هي الحياة، فالعَيْشُ هو مقوّمات الحياة، ولذلك سمّوا الخبز في القري عيشًا لأن عندهم دقّةً بالغة؛ لأنهم عرفوا أنه مقوِّم أساسي في الحياة)[1].

ومن ثمَّ فقد أفاد الجمع والتنكير في كلمة (معايش) الدلالة علي التنويع، والكثرة، والعموم والشمول لتشمل المعايش كل ما تتوصّلون به إلي العيش وهو يعُمّ جميع وجوه المنافع التي تحصّل بها الأرزاق من الزرع والثمار،وما يتحصّل من المكاسب والأرباح في أنواع التجارات والصنائع، وكل ذلك بتمكينه ـ سبحانه ـ لعباده وإنعامه عليهم.

كما يشي الجمعُ -أيضًا- بمعني دقيق آخر أشار إليه الإمام الآلوسي بقوله: (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ) متعدّدة دون غيركم فإن له معيشة واحدة؛ وذلك لأن الإنسان فيه مَلَكِيَّة، وحيوانية، وشيطانية، فمعيشة رُوحه معيشة المَلَك ومعيشة بدنه الحيوان ومعيشة نفسه الأمَّارة معيشة الشيطان. وله معايش غير ذلك، وهي معيشة القلب بالشهود، ومعيشة السرّ بالكشوف، ومعيشة سرّ السرّ بالوصال) [2].

ومن هنا يتلاقى التنكير والجمع في (معايش) مع السياق الوارد فيه الآية وهو تذكيرهم بما أفاض عليهم من فنون النعم الموجبة للشكر ترغيبًا

---

[1] تفسير الشعراوي (الخواطر)، جـ٧، صـ٤٠٥٣، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

[2] روح المعاني، الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، جـ٤،صـ٣٣٧، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولي ١٤١٥ هـ.

في الامتثال بالأمر والنهي إثر ترهيب ومن ثمّ عتابُهم ومؤاخذتهم علي قلة شكرهم.

ولذا خُتمت الآية بقوله: ((قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)) وهو تذييلٌ مسوقٌ لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم، أي ما منَّنا عليكم بذلك إلا لتشكروا بمتابعة ما أنزلنا إليكم، وترك متابعة مَن دوننا، فتحصَّلوا معايش السعادة الأبدية[1]، ومن ثمَّ يأتي هذا التذييل تذكيرًا لهؤلاء الغافلين بأن الله هو وليُّ الخلق؛ لأنه خالقهم على وجه الارض، وخالق ما به عيشُهم الذي به بقاءُ وجودهم إلى أجل معلوم، و توبيخًا لهم على قلة شكرها ((قليلا ما تشكرون)) .

﴿ الخلاصة ﴾

من خلال ما سبق عرضه حول أسرار التقديم في الآية الكريمة يتجلىَّ لنا بوضوح ان السرَّ البلاغي لتقديم الظرفين (لكم فيها) علي المفعول به (معايش) هو الاعتناء بشان المقدّم والتشويق الى المؤخّر؛ فإن النفس عند تأخير ما حقَّه التقديم تبقى مترقبة لورود المؤخَّر فيتمكّن في النفس فضلَ تمكُّن وقد تقدم الظرف الاول (لكم) علي الظرف الثاني (فيها) للاهتمام حيث إنهم المقصودون بهذا الجعل ويؤيِّدُ هذا قوله تعالى ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾[2] وقوله –سبحانه–﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[3]وقد تقدم هنا الظرف (لكم) على المفعول

---

[1] ينظر تفسير ابي السعود جـ٣، صـ٢١٤، و تفسير القاسمي، جـ٥، صـ١١.

[2] النازعات، الآيات (٢٧-٣٣).

[3] الجاثية، من الآية ١٣.

(ما) الاسم الموصول ومن ثم فإن الإمام أبا السعود قد وافقه الصواب فيما أشار اليه من سرَّ التقديم في الآية الكريمة كما يتجلّى لنا بوضوح أن التقديم في الآية الكريمة جاء ليفي بحق المقام ومقتضيات السياق- كما مرّ -.

وثَمَةَ تشابهٌ بين الآية محل البحث و بين قوله تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[1]. وهذا التشابه يثير تساؤلا مهمًا، وهو ما سرُّ التغاير في النظم بين الموضعين؟ و للإجابة عن ذلك نقول: من خلال النظر في الآيتين الكريمتين يمكننا ملاحظة الفرق بينهما من حيث التكريم، وغنيٌ عن القول إن التعبير في آية البقرة يدل على تكريم أكبر من آية الاعراف. والسرُّ في ذلك أن آية الاعراف واردة في مقام العتاب على بني آدم ومؤاخذتهم على قلة شكرهم وليست في مقام تكريمهم وقبلها قال ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

هذا من جهة المقام وأما من حيث السياق فإن آية الاعراف واردة في سياق العقوبات وإهلاك الأمم الظالمة من بني آدم، وفي سياق غضب الرب -سبحانه- فقد قال قبلها ((قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾[3].

فقد ذكر انه عاقب قسما كثيرًا من بنى آدم وأنزل عليهم بأسه لظلمهم.

وهذا بخلاف آية البقرة فإنها تأتي في سياق الرد على الكفار وإثبات البعث من خلال ذكر بعض آياته سبحانه في الأنفس والآفاق[4]- ومن ثم تأتي آية البقرة في

---

[1] البقرة، من الآية ٢٩.

[2] الأعراف، من الآية ٣.

[3] الأعراف، الآيتان ٤، ٥.

[4] البقرة، الآيات ٢٦ – ٢٨.

مقام طلاقة قدرة المولى تبارك وتعالى في خلق الأرض والسماء، مما يشي بشناعة كفرهم به ـ سبحانه ـ وعلى أنه مما يُقضي منه العجب؛ فإن دلائل ربوبية الله ووحدانيته ظاهرة في خلق الانسان وفي خلق جميع ما في الارض، فهو ارتقاء في الاستدلال بكثرة المخلوقات.

ومن هنا يتلاقى العموم والشمول في آية البقرة مع سياقها الوارد فيه من جهة ومع مقام طلاقة القدرة من جهة أخرى. ومن ثم فالفرق واضح بين السياقين. فكان كلُ تعبير أنسبَ في سياقه الذي ورد فيه.

الفصل الثاني

أسرار التقديم والتأخير في سياق

الحديث عن قصص الأنبياء - عليهم السلام-

- ويشتمل علي ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: أسرار التقديم والتأخير في سياق الحديث عن قصة نوح –عليه السلام-
- المبحث الثاني: أسرار التقديم والتأخير في سياق الحديث عن قصة هود –عليه السلام-
- المبحث الثالث: أسرار التقديم والتأخير في سياق الحديث عن قصة موسي –عليه السلام-

المبحث الأول

أسرار التقديم والتأخير

في سياق الحديث عن قصة نوح - عليه السلام-

{الموضع الأول}

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1].

يقول الإمام أبو السعود –رحمه الله–: (وتقديمُ ذِكر الإنجاء على الإغراق للمسارعة إلى الإخبار به والإيذان بسبق الرحمة التي هي مقتضى الذات وتقدُّمها على الغضب الذي يظهر أثره بمقتضى جرائمهم[2].

{ موضع الشاهد في الآية ومغزاه }

من خلال ما ذكره الإمام أبو السعود –رحمه الله– يتضح لنا أنه قد أشار إلى نوع من التقديم غير معهود عند البلاغيين وهو تقديم معني على معني؛ حيث أشار إلى تقديم ذكر الإنجاء على الإغراق في الآية. وقد بيّن الإمام سرّ التقديم في الآية وهو المسارعة إلى الإخبار به والإيذان بسبق الرحمة وتقدّمها على الغضب وقد وُفِّق الإمام في ذلك.

{ الدراسة والتحليل }

تأتي هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن دعوة نوح –عليه السلام– لقومه وتكذيبهم له واتّهامهم إياه بالضلال وتعجُّبه من استغرابهم وانكارهم رسالته[3] ومن ثمّ تأتي الآية الكريمة في مقام الإخبار عن سرعة إنزال العقوبة بقوم نوح إثر تكذيبهم له وسرعة إنجاء نوح والمؤمنين معه.

ومن هنا فقد بُنِى نظم القصة في (الأعراف) على الإيجاز والتركيز وبيان عدم الإمهال في أخذهم، فقد قال لهم نوح –عليه السلام–: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن

---

[1] الأعراف، الآية ٦٤، ومثلها الآية ٧٢.

[2] تفسير أبي السعود، جـ٣، ص٢٣٧.

[3] الأعراف، الآيات ٥٩– ٦٣.

جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾[1].

وبعدها قال الله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾[2].

ومن ثَمّ فقد أوثر التعبير بالفاء دون (ثُمّ) للدلالة على سرعة إنزال العقوبة وعدم الإنظار، وقد أفاد التعبير بقوله (فكَذَّبوه) بصيغة التضعيف والإضافة إلى ضمير الجمع الإصرار على التكذيب وتَجَدُّد هذا التكذيب منهم أي: (صدر منهم قول يقتضى تكذيبَ دعوى أنه رسول من رب العالمين يبلّغ وينصح ويعلم ما لا يعلمون، فصار تكذيبًا أعمّ من التكذيب الأول فهو بالنسبة للملأ يؤول إلى معنى الاستمرار على التكذيب، وبالنسبة للعامة تكذيبٌ اُنُف، بعد سماع قول قادتهم وانتهاء المجادلة بينهم وبين نوح -عليه السلام-[3].

هذا ما مع ما تشي به إضافةُ التكذيب إلى ضمير الجمع في قوله: ((فكذّبوه)) من إفادة أن التكذيب قد وقع من جميع قومه: من قادتهم، ودَهْمَائهم، عدا بعض أهل بيته ومن آمن به عقب سماع قول نوح -عليه السلام-[4] (٢) هذا على الرغم من طول مدة إقامته فيهم ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾[5].

---

[1] الأعراف، الآية ٦٣.

[2] الأعراف، من الآية ٦٤.

[3] التحرير والتنوير، جـ٨، صـ١٩٧.

[4] ينظر: تفسير المنار، جـ٨، صـ٤٣٩، والتحرير والتنوير، جـ٨، صـ١٩٧

[5] العنكبوت، من الآية ١٤.

وعليه فإن الفاء في قوله: ﴿فأنجيناه﴾ للتعقيب، وهو تعقيب عُرفي؛ لأن التكذيب حصل بعده الوحي إلى نوح بأنه لا يؤمن من قومه إلا من قد آمن، ولا يُرجي زيادةُ مؤمن آخر[١].

وقد آثر النظم القرآني تقديم الإخبار بالإنجاء على الإخبار بالإغراق مع أن مقتضى مقام العبرة تقديمُ الإخبار بإغراق المنكرين، والسرُّ في ذلك هو الاهتمام بإنجاء المؤمنين والتعجيل بالمسرة للسامعين من المؤمنين بأن عادة الله إذا أهلك المشركين أن ينجّى الرسول والمؤمنين، فلذلك التقديم يفيد التعريض بالنذارة، وإلا فإن الإغراق وقع قبل الإنجاء، إذ لا يظهر تحقُّق إنجاءِ نوح ومن معه إلا بعد حصول العذاب لمن لم يؤمنوا به، فالمعقَّبُ به التكذيب ابتداءً هو الإغراق والإنجاء واقع بعده[٢]،ومن ثَمّ يتلاقى التقديم في الآية الكريمة مع الغرض المسوق له الكلام وهو الإخبار عن سرعة إنزال العقوبة بقوم نوح إثر تكذيبهم له وإنجاء نوح والمؤمنين معه.

ولذا آثر النظم –هنا– التعبير بـ (أنجيناه) دون (نجّيناه)، وذلك لان (نجّي) تأتي في القرآن الكريم كثيرًا للدلالة على التلبُّث والتمهُّل في التنجية بينما تأتي (أنجي) للإسراع فيها.؛ فإن (أنجي أسرع من نجّي) في التخليص من الشده والكرب. هذا وإن البناء اللغوي لكل منهما يدل على ذلك[٣].

ولعلَّ سائلًا يسأل فيقول: ولكن القرآن الكريم قد يستعمل في القصة الواحدة مرّة (أنجي) ومره (نجَّي) كما في الآية هنا (فكذبوه فأنجيناه)... وقوله مرة أخرى في

---

[١] ينظر: التحرير والتنوير ، ج٨ صـ١٩٧.

[٢] ينظر: تفسير أبي السعود، جـ٣، صـ٢٣٧، والتحرير والتنوير، جـ٨، صـ ١٩٨.

[٣] ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د / فاضل السامرائي، صـ٧٠، دار إعمار – عمان، الطبعة الرابعة ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

قصه نوح نفسها: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾[1]. وكما في قصة ثمود فقد قال مرة ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[2]، وقال مرة أخري: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾[3].

فما السر في ذلك ؟

وللإجابة عن ذلك نقول: إن ذلك بحسْب ما يقتضيه السياق والمقام، فقد يتطلب المقام ذكر الإسراع في النجاة فيستعمل (أنجي) وقد لا يتطلب ذلك فيستعمل (نجّي) وكل ذلك صحيح، فقد نستطيل أمرًا وقد نستقصره بحسْب المقام. فقد نقول في مقام: (الدنيا طويلة) وقد نقول في مقام آخر: (الدنيا قصيرة) ولكل مقامٍ مقال[4].

{ الخلاصة }

من خلال ما سبق عرضه حول الآية الكريمة يتجلّى لنا بوضوح أن الإمام أبا السعود –رحمه الله– قد وافقه الصواب فيما ذهب إليه من سر تقديم الإخبار بالإنجاء على الإخبار بالإغراق، وهو التعجيل بالمسرة والاهتمام بإنجاء المؤمنين، بالإضافة إلى كونه مُفهما أيضا إهلاكهم؛ إذ إن الإنجاء لا يكون إلا من هلاك، وهو نفس التقديم في الآيتين الثالثة والثمانين والرابعة والثمانين في قصة لوط –عليه

---

[1] يونُس، من الآية ٧٣.

[2] فصلت، الآية ١٨.

[3] النمل، الآية ٥٣.

[4] ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، صـ ٧٢ – ٧٣.

السـلام- قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[1].

كما يتجلى لنا بوضوح أن التقديم في الآية الكريمة جاء ليفي بحق المقام ومقتضيات السياق - كما مرّ-.

❁❁❁❁

[1] الأعراف، الآيتان ٨٣ - ٨٤.

المبحث الثاني

أسرار التقديم والتأخير

في سياق الحديث عن قصة هود – عليه السلام -

﴿الموضع الأول﴾

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[١].

يقول الإمام أبو السعود -رحمه الله-: (((وإلى عادٍ)) متعلق بمضمر معطوف على قوله -تعالي-: ((أرسلنا)) في قصه نوح -عليه السلام- وهو الناصب لقوله -تعالى-: ((أخاهم)) أي:وأرسلنا إلى عاد أخاهم أي واحدًا منهم في النسب لا في الدين كقولهم: يا أخا العرب، وقيل: العامل فيهما الفعل المذكور فيما سبق (وأخاهم) معطوف على (نوحًا) والأول هو الأولى، وأياً ما كان فلعلّ تقديم المجرور ههنا على المفعول الصريح للحِذار عن الإضمار قبل الذكر) [٢].

﴿ موضع الشاهد في الآية ومغزاه ﴾

من خلال ما ذكره الإمام أبو السعود -رحمه الله- نجد أنه أشار إلى موضع التقديم في الآية وهو تقديم الجار والمجرور (إلى عاد) على المفعول الصريح (أخاهم). ومن ثمّ فنوع التقديم هنا هو من تقديم المتعلقات. وقد بين الإمام أبو السعود سرَّ التقديم في هذا الموضع وهو الحذار من الإضمار قبل الذكر وقد وافقه الصواب في ذلك.

﴿ الدراسة والتحليل ﴾

تأتي هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن قصص الأنبياء -عليهم السلام- حيث بدأ بقصة نوح -عليه السلام- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ

---

[١] الأعراف، الآية ٦٥، ومثلُها الآيتان ٧٣، ٨٥.

[٢] تفسيرِ أبي السعود، جـ٣، ص٢٣٧.

قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ إلخ الآيات[1] ثم ثُنّي بقصة هود –عليه السلام– فقال " قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾.

ومن ثَمّ تأتي الآية الكريمة في مقام ذكر طرف من قصة هود –عليه السلام– في دعوته لقومه وحرصه على هدايتهم.

وعليه فقد بُني النظم على الوصل والإيجاز، حيث عُطفت جملة أخاهم ((هودًا)) على جملة "لقد أرسلنا نوحًا الى قومه.." أي: وإلى عادٍ أرسلنا أخاهم هودًا. فهو إيجاز بالحذف.

وهنا يبرز سؤال: لماذا آثر النظم القرآني عطف جملة نوح قبيل هذه بالفاء (فقال) وعُطفت جملة هود بالواو ((وإلى عاد اخاهم هودا))؟

والسرُّ في ذلك أن قول نوح –عليه السلام– كان ابتداء كلام عن الرسل في سورة الأعراف فلم يك هناك داعٍ لنشوء سؤال في الذهن تُفْصَلُ من أجله الجملة، وفي قول هود تثنية للكلام فمن الوجيه أن ينشأ هذا السؤال. عرفنا ما قاله نوح فماذا قال هود؟[2].

وثمَّة سرٌّ آخر أشار إليه صاحب مفاتيح الغيب بقوله: (والفرق أن نوحًا –عليه السلام– كان مواظبًا على دعواهم وما كان يؤخّر الجواب عن شبهاتهم لحظة واحدة. وأما هود فما كانت مبالغته إلى هذا الحدّ فلا جَرَمَ جاء فاءُ التعقيب في كلام نوح دون هود) [3] [4].

---

[1] الأعراف، الآيات ٥٩– ٦٤.

[2] ينظر: تفسير الكشاف، جـ٢، صـ ١١٦، والتفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم،ج١ صـ٣٨١..

[3] مفاتيح الغيب، الرازي ، ج١٤، صت٢٩٩.

[4] ينظر: حاشية الشهاب علي البيضاوي جـ٤، صـ ١٨٠، دار صادر – بيروت – بدون تاريخ. وتفسير القاسمي، جـ ٥، صـ ١١٣.

و عادٌ: اسم أبيهم سميت به القبيلة أو الحيّ[١] ومن ثَمّ فعادٌ مجاز مرسل عن القبيلة التي تفرّعت من صُلبه؛ لا نه الجدّ الأعلى لهم، والعلاقة السببية. وفي (أخاهم) استعارة حيث شُبِّه مطلق القرابة بقرابة الأخ الصُلبي بأخيه. وفي إيثار هذا الوصف (الأخوة) تسجيل على عاد بقُبحَ الإعراض عن دعوته؛ لأنه منهم والرائد لا يخدع أهله، (وهودًا) بدل أو عطف بيان علي (أخاهم).

وفي تقديم (أخاهم) على (هودًا) للاهتمام بالوصف الذي تقوم به الحُجّة عليهم. بما يشي به هذا الوصف من التقريب و استمالة قلوبهم للإيمان بذكر العلاقة التي تربطهم به من أخوه الانسانية، وكذا ذكر الاهتمام بأمر هدايتهم والاعتناء بأمر دعوتهم؛ حيث أُرسل إليهم رسولٌ منهم ليس بغريب عنهم، ومن ثَمّ فالتقديم هنا للاهتمام والاعتناء بهم.

وتقديم الجار والمجرور (إلى عاد) على (أخاهم هودًا) لئلا يعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة لو قيل: (أخاهم هودًا إلى عاد) فإن الضمير كان حينذاك سيعود على (عاد) وهو متأخر في اللفظ وفي الرتبة. هذا مع ما يشي به تقديم الجار والمجرور من تَأتّي الإيجاز بالإضمار حيث أريد وصف هود بأنه من إخوة عاد ومن صميمهم من غير احتياج إلى إعادة لفظ (عاد) [٢].

ومن ثَمّ فقد فُصِلت جملة (قال يا قوم) عما قبلها فلم تُعطف لا بالواو ولا بغيرها، والفصل هنا للاستئناف البياني لوقوعها جوابًا عن سؤال مقدر. ومن ثَمّ فالسرُّ في الفصل هنا هو شبه كمال الاتصال.

وقد آثر النظم القرآني إضافة (قوم) المنادَى إلى ضمير المتكلم وقد أفاد هذا تليين وتلطيف الخطاب رغبةً في الإقبال عليه و تصديق ما يقول.

---

(١) ينظر: حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي، ج٤ صـ١٠٨، دار صادر –بيروت–بدون تاريخ.

[٢] ينظر: تفسير أبي السعود، جـ٣، صـ٢٣٧، والتحرير والتنوير، جـ٨، صـ ٢٠٠.

والأمر في (اعبدوا الله) للإيجاب متضمنًا معنى التوحيد. وقد أفاد دخول (مِنْ) على (إله) مسند إليه في قوله: "مالكم من إله غيره" الاستغراق والاستقصاء، أي الدلالة على انعدام ألوهيّة غير ألوهيّة الله انعدامًا كاملاً.(١)

وقد خُتمت الآية بقوله: (أفلا تتقون) وهو استفهام إنكاري قصد به الزجر والتوبيخ والحث على تحصيل التقوى ومن ثَمّ ففيه إنكار واستبعاد لعدم اتقائهم عذاب الله – تعالى– بعد ما علموا ما حلَّ بقوم نوح كما يشي –أيضا– بالإشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المتقدمة المشهورة في الدنيا.(٢)

﴿ الخلاصة ﴾

من خلال ما سبق عرضه حول الآية الكريمة يتجلّى لنا بوضوح أن الآية قد انطوت علي موضعين للتقديم أشار إلى أحدهما الإمام أبو السعود ولم يتطرق إلي الآخر، والموضعان هما:

الأول: تقديم الجار والمجرور (إلى عادٍ) على (أخاهم هودًا) وقد بيّن الإمام أبو السعود السرّ في التقديم هنا وهو الحذار من الإضمار قبل الذكر لئلّا يعود الضمير على متأخر لفظًا ورتبة.

الثاني: تقديم (أخاهم) على (هودًا) والسرُّ هنا هو العناية والاهتمام. كما يتجلَّى لنا بوضوح أن التقديم في الآية الكريمة جاء ليفي بحق المقام ومقتضيات السياق ـ كما مرـ

❁❁❁❁

(١) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، مرجع سابق، جـ١ ، صـ٣٨١.

(٢) ينظر: البحر المحيط،أبو حيان الأندلسي، جـ٤، صـ٣٢٣،دار الفكر–بيروت، ١٤٠٣هـ–١٩٨٣م، وروح المعاني، جـ٨، صـ١٥٥، وتفسير المنار، جـ ٨، صـ٤٤٢، والتحرير والتنوير، جـ٨، صـ٢١٢.

المبحث الثالث

أسرار التقديم والتأخير

في سياق الحديث عن قصة موسي –عليه السلام-

﴿ الموضع الأول ﴾

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[1].

يقول الإمام أبو السعود – رحمه الله –: (ثم بعثنا من بعدهم موسى) أي أرسلناه من بعد انقضاء وقائع الرسل المذكورين أو من بعد هلاك الأمم المحكية، والتصريحُ بذلك مع دلالة (ثم) على التراخي للإيذان بأن بَعْثَهُ عليه الصلاة والسلام جرى على سَنَن السنن الإلهيَّة من إرسال الرسل تترًا وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤَّخر[2].

﴿ موضع الشاهد في الآية ومغزاه ﴾

من خلال ما ذكره الإمام أبو السعود ـ رحمه الله ـ نلحظ أنه ذكر موضحًا التقديم في الآية وهو تقديم الجار والمجرور (من بعدهم) على المفعول الصريح (موسى) وقد بين السر في ذلك وهو الاغتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ومن ثم فالتقديم هنا من تقديم المتعلقات.

﴿ الدراسة والتحليل ﴾

تأتى هذه الآية الكريمة في سياق قصَّ ـ المولى تبارك وتعالى ـ على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبار نوح، وهود، وصالح، ولوط ـ عليهم السلام وما آل

---

[1] الأعراف، الآية ١٠٣.

[2] تفسير أبي السعود، جـ ٣، صـ٢٥٧.

إليه أمر قومهم بعد تكذيبهم [١]، ومن هنا تأتى هذه الآية الكريمة في مقام العظة والاعتبار بقصة موسى – عليه السلام – مع فرعون وقومه من بنى إسرائيل.

ومن ثمَّ فقد بنى النظم على الوصل حيث عَطفت هذه الآية على ما قبلها بـ (ثم) (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا ...) وهو من قبيل عطف القصة على القصة، وقد أفادت (ثُمَّ) هنا التراخي في النوع أو الرتبة وبيان ذلك (أن هذا الإرسال وما ترتب عليه وأعقبه في قوم موسى مخالف لجملة ما قبله مخالفة تضاد؛ فقد أُنقِذَتْ به أمة من عذاب الدنيا، وهو تعبيد فرعون وملائه لها وسَوْمُهم إياها أنواعَ الخزي والنكال واهتدت إلى عبادة الله – تعالى – وحده)وإقامة شرعه، فأعطاها في الدنيا ملكًا عظيمًا، وجعل منها أنبياء وملوكًا، وأعد بذلك المهتدين منها لسعادة الآخرة الباقية ٠ فأين هذا الإرسال من ذلك الإرسال الذى أعقب أقوام أولئك الرسل في الدنيا عذاب الاستئصال، وفى الآخرة ما هو أشد وأبقى من الخزى والنكال؟) [٢].

ومن هنا فقد أوثر عطف هذه القصة على ما قبلها بإعادة ذكر الإرسال وهذا بخلاف قصص (هود، وصالح، ولوط، وشعيب) ـ عليهم السلام ـ وذلك للتفرقة فى العاقبة؛ ولذا أُوثر – هنا – التعبير بلفظ البعث وهو أخص وأبلغ من لفظ الإرسال؛ لأنه يفيد معنى الإثارة والإزعاج إلى الشيء المهم ٠ ومن ثم فالتعبير بلفظ البعث – هنا – يؤكد ما أفادته إعادة العامل من التفرقة بين نوعى الإرسال[٣].

---

[١] الأعراف، الآيات ٥٩ – ٩٣.

[٢] تفسير المنار، جـ٩، صـ٣٥.

[٣] ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهانى،مراجعة وتقديم: وائل أحمد عبد الرحمن،صـ ٦٣ المكتبة التوفيقية، القاهرة، الطبعة الرابعة ٢٠١٥ م وتفسير المنار جـ ٩، صـ ٣٤، ٣٥.

وقد أفاد التصريح بقوله: (من بعدهم) مع دلالة (ثم) على التراخي الإيذان بأن بعث موسى – عليه السلام – جرى على سَنَن السنة الإلهية من إرسال الرسل تترًا وعليه فالكناية في قوله: (من بعدهم) يجوز أن تعود إلى الأنبياء الذين جرى ذكرهم ويجوز أن تعود إلى الأمم الذين تقدم ذكرهم بإهلاكهم[1].

ومن ثم فقد أوثر تقديم الجار والمجرور (من بعدهم) على المفعول الصريح (موسى) للعناية والاهتمام ٠ وقد أفاد التقديم – هنا – الإشارة إلى كمال رحمته – سبحانه – بخلقه، حيث يبعث عند انصرام كلِّ قرن وانقراض كل قوم نبيًا بعد نبى، كما يخلف قومًا بعد قوم وقرنًا بعد قرن ويظهر المعجزات على يدى النبى ليخرجهم من الظلمات إلى النور وهذا أدخل في مقام العظة والاعتبار الوارد فيه الآية.

وفى تخصيص فرعون وملائه بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم إشارة إلى أن مَنْ عداهم كالأتباع لهم.

وقد أفاد العطف بالفاء في قوله (فظلموا بها) الدلالة على مبادرة فرعون وملائه بتكذيب موسى – عليه السلام – هذا مع ما يشى به حذف مفعول (ظلموا) من دلالة على العموم، فقد ظلموا كل من له حق في الانتفاع بالآيات، حيث منعوا الناس من التصديق بها وآذوا الذين آمنوا.

ولمَّا كانت الآية واردة في مقام العظة والاعتبار بقصة موسى مع فرعون وقومه فقد خُتمت الآية بقوله: (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وهو أمر بالنظر بعين العقل و الفكر للتأمل والاعتبار في عاقبة فرعون وملإئه المفسدين في الأرض بالظلم واستعباد البشر حين جحدوا آيات الله وظلموا بها عملا بمقتضى فسادهم.

---

[1] ينظر تفسير أبي السعود، جـ٣، ص ٢٥٧، وروح البيان، جـ ٣، ٢٠٩، مفاتيح الغيب، جـ ٨٤، ص ٣٢٥.

هذا مع ما يشى به من تشويق لتوجيه النظر لما سيقُصُّه – تعالى – من عاقبة أمرهم إذ نصر عبده ورسوله موسى عليهم وهو فرد من شعب مستضعف مستعبَد لهم، وهم أعظم أهل الأرض صَوْلةً وقوة.

﴿ الخلاصة ﴾

من خلال ما سبق عرضه حول الآية الكريمة يتجلى لنا بوضوح أن الإمام أبا السعود – رحمه الله – قد وافقه الصواب فيما ذهب إليه من سر تقديم الجار والمجرور (من بعدهم) على المفعول الصريح (موسى) وهو العناية والاهتمام، كما يتضح لنا أن التقديم في الآية الكريمة جاء ليفي بحق المقام ومقتضيات السياق – كما مر –.

﴿ الموضع الثاني ﴾

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[1].

يقول الإمام أبو السعود – رحمه الله – (وفى إيقاع (هؤلاء) اسمًا لـ (إنَّ) وتقديم الخبر من الجملة وسمٌ لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار وأنه لا يعدوهم البتة وأنه لهم ضَرْبةُ لازِب ليحذّرهم عاقبة ما طلبوا ويبغض إليهم ما أحبُّوا)[2].

﴿ موضع الشاهد في الآية ومغزاه ﴾

من خلال ما ذكره الإمام أبو السعود – رحمه الله – نجدُ أنه ذكر موضعًا للتقديم في الآية وهو تقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبرًا لـ ((هؤلاء)) علي (ما هم فيه) وقد أشار إلي سر التقديم وهو وَسْمُ عَبَدَةِ الأصنام بأنهم هم المعرَّضون للتبار وأنّه لا يعدوهم البتة، وأنه لهم ضربةُ لازب.

ومن ثَمّ فالتقديم هنا من تقديم المسند علي المسند إليه..

﴿ الدراسة والتحليل ﴾

تأتي الآية الكريمة في سياق الحديث عن حكاية طلب بني إسرائيل من موسي –عليه السلام– أن يجعل لهم إلهاً كآلهة هؤلاء القوم الذين مروُّا بهم حين عبروا البحر[3].

---

[1] الأعراف، الآية ١٣٩.

[2] تفسير أبي السعود،جـ ٣، صـ٢٦٨.

[3] الأعراف، الآية ١٣٨.

ومن ثَمّ تأتي هذه الآية في مقام توبيخ بني إسرائيل علي طلبهم وبيان فساد هؤلاء القوم العاكفين علي عبادة أصنامهم وسوء مصيرهم الذي يئولون إليه لتحذيرهم من عاقبة ما طلبوا.

ولذا فقد حفل النظم بكل ما يفي بحق المقام ومقتضيات السياق، ومن ذلك:

بناء النظم علي القطع والاستئناف، حيث فصلت جملة (إن هؤلاء متبر ما هم فيه) عما قبلها وهي جملة (إنكم قوم تجهلون) لأنها بمعني التعليل لها.

كما أُكِّدت الجملة بـ (إنَّ) وجيء بها اسمية وقد أفاد التأكيد – هنا – أن التبار وصف ثابت لهم لا يعدوهم البتة.؛ ومن ثمَّ جاء المسند إليه معرَّفًا بالإشارة لتميزهم بتلك الحالة التي هم متلبسون بها أكمل تمييز، وللتنبيه علي أنهم أحرباء بما يرد بعد اسم الإشارة من الأوصاف وهي كَوْنُهم متبرًا أمرُهم وباطلاَ عملُهُم[1].

وعليه فقد أوثر تقديمُ المسند وهو (متبّر) علي المسند إليه وهو (ما هم فيه) وقد أفاد تقديمُه –هنا – تخصيصه بالمسند إليه أي: هم المعرضون التبار وأنه لا يعدوهم البتَّة وأنه لهم ضربة لازب[2].

والتقديم – هنا – مبنيٌّ على أحد وجهي الإعراب فى الآية الكريمة وهو أن يكون الموصول (ما هم فيه) مبتدأ، و (متبَّرٌ)خبرُه قُدم عليه، والجملة خبرٌ لـ (إنّ)[3].

---

[1] ينظر: التحرير والتنوير، جـ ٩/ صـ ٨٢.

[2] ينظر: تفسير الكشاف، جـ٢، صـ١٥٠، وتفسير أبي السعود، جـ٣، صـ٢٦٨، تفسير التحرير والتنوير جـ٩، صـ٨٢.

[3] الوجه الثانى فى إعراب الآية هو أن يكون (متبرٌ) خبرً لـ (إن) و (ما) موصولة بمعنى الذى و (هم فيه) جملة اسمية صلة وعائدُه، وهذا الموصول مرفوع باسم المفعول فيكون قد أخبرْت بمفرد رفعْت به شيئًا – ينظر : البحر المحيط، أبو حيان ج ٥، ص ١٥٨، والدرر المصون فى علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبى،تحقيق: أحمد محمد الخراط، ح ٥، ص ٤٤٤، دار القلم – دمشق، بدون تاريخ.

وهذا الوجه أوفق ما ناحيتين:

الأولى: أن المقصود بالإخبار هو ما هم فيه

الثانية في تقديم (متبَّرٌ) هنا ربط لفظي بين التبار وبين أصحابه (هؤلاء)وعلى هذا الوجه الإعرابي حدث الربط المعنوي الذى أفاده الحكم الإعرابي، وذلك ليكون التبار لاحقًا بأصحابه لفظًا ومعنى[١].

يقول الإمام الزمخشريُّ ـ رحمه الله ـ (وفى إيقاع هؤلاء) اسمًا لـ (إنَّ) وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبرًا لها وسمٌ لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار وأنه لا يعدوهم البتة، وأنه لهم ضربة لازب، ليحذِّرهم عاقبة ما طلبوا و يبغِّض إليهم ما أحبُّوا[٢].

والمتبَّرُ: المدمَّرُ، والتَّبَارُ: – بفتح التاء – الهلاكِ (ولا تزد الظالمين إلا تبارًا)[٣].

يقال: تَبَرَ الشيءَ – كَضَرَبَ وقَتَلَ – وتبَّره تضعيف للتعدية، أي: أهلكه[٤].

---

[١] ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم دراسة تحليلية، د/ محمود منير المسيري، تقديم: أ. د / عبد العظيم المطعني و أ. د / علي جمعة، صـ٣٧٨. مكتبة وهبة _ القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩م.

[٢] تفسير الكشاف، جـ٢، صـ١٥٠.

[٣] نوح، من الآية ٢٨.

[٤] ينظر: لسان العرب، ابن منظور المصري، جـ٤ صـ٨٨، باب التاء المثنَّاة ،دار المعارف – مصر، بدون تاريخ، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل، الأمام النسفي، تحقيق: يوسف علي بديوي، مراجعة وتقديم: محي الدين ديب مستو، جـ١، صـ٦٠٠، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولي ١٤١٩ –١٩٩٨.، وتفسير البحر المحيط، جـ٥، صـ ١٥٨..

ومن ثَمَّ فالتتبيرُ – هنا – مستعار لفساد الحال، فيبقى اسم المفعول على حقيقته في أنه وصف للموصوف به في زمن الحال، ويجوز أن يكون التتبير مستعارًا لسوء العاقبة، شُبه حالهم المزخرف ظاهرُه بحال الدمار والكسر فيكون اسم المفعول مجازًا في الاستقبال أي الشيء البهيج الصائر إلى السوء[1].

والسرُّ البلاغيُّ للاستعارة – هنا – هو الإشارة إلى فساد جميع أحوالهم في الحال والاستقبال، وهذا أدخل في مقام التوبيخ والإنكار الوارد فيه الآية؛ ولذلك اختير طريق الموصولية (ما هم فيه) في تعريف حالهم لأن الصلة تحيط بأحوالهم التي لا يحيط بها المتكلم ولا المخاطبون.

ومن ثَمَّ فالظرفية في قوله:(فيه) مجازية مستعارة للملابسة، تشبيهاً للتلبُّس باحتواء الظرف علي المظروف. والسر البلاغي للاستعارة هنا هو الدلالة علي أن الفساد والتبار وصفٌ لازم لهؤلاء العاكفين علي عبادة الأصنام لا يعدوهم أبدًا وأنه لهم ضربة لازب فهو متلبسٌ بهم تلبُّس الظرف بالمظروف.

ولمَّا كان المقام في الآية للتوبيخ والإنكار علي بني إسرائيل في طلبهم لتحذيرهم من عاقبة ما طلبوا وليبغِّض إليهم ما أحبُّوا فقد استطال النظم في بيان سوء حال ومآل هؤلاء العاكفين علي عبادة الأصنام حيث عُطفت جملة (وباطل ما كانوا يعملون) علي قوله: (متَبَّرٌ ما هم فيه) حيث أُوثر التعبير باسم الفاعل (باطل) وهو اسم لضد الحق وقد أفاد ـ هنا ـ المبالغة في البطلان.

وفي تقديم المسند وهو (باطل) علي المسند إليه وهو (ما كانوا يعملون) ما في نظيره من قوله: (متبَّرٌ ما هم فيه).

---

[1] ينظر: التحرير والتنوير، جـ٩،صـ ٨٣.

﴿ الخلاصة ﴾

من خلال ما سبق عرضه حول الآية الكريمة يتجلّى لنا بوضوح أن الآية الكريمة قد انطوت علي موضعين من مواضع التقديم وهما:

الأول: تقديم المسند إليه (متبر) علي المسند (ما هم فيه).

الثاني: تقديم المسند إليه (باطلٌ) علي المسند (ما كانوا يعملون).

وسرّ التقديم في الموضعين هو وسْمُ عَبَدَةِ الأصنام بأنهم المعرَّضون للتبار واضمحلال آثار أعمالهم، وأنّه لا يعدوهم البتّة، وأنّه لهم ضربةُ لازب، كما يتجلّى لنا بوضوح أن التقديم في الموضعين جاء ليفي بحق المقام ومقتضيات السياق – كما مرَّ –.

﴿الموضع الثالث﴾

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾[1].

يقول الإمام أبو السعود–رحمه الله: (وقوله– تعالى –{عِجْلاً} مفعولُ اتخذ أُخِّر عن المجرور لما مرَّ من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يُخِلّ تقديمُه بتجاوب أطرافِ النظمِ الكريم وقيل هو متعدَ إلى اثنين بمعنى التصيير والمفعول الثاني محذوفٌ أي إلها)[2]

﴿ موضع الشاهد في الآية ومغزاه ﴾

من خلال ما ذكره الإمام أبو السعود–رحمه الله– نجد أنه قد أشار إلي موضع التقديم في الآية الكريمة، وهو تقديم الجار والمجرور (من بعده) علي (عجلاً) مفعول (اتخذ).

وأوضح السرَّ في التقديم وهو الاعتناء بالمقدم والتشويق إلي المؤخر، ومن ثَّم فالتقديم هنا من تقديم المتعلّقات،كما ذكر الإمام وجها آخر في إعراب الآية بصيغة التضعيف والتمريض، يقول: (وقيل)، هو متعد إلي اثنين بمعني التصيير والمفعول الثاني محذوف أي (إلهاً)، ومن ثَّم فالمعتمد عنده هو الوجه الأول وهو الذي بني عليه شاهد التقديم في الآية.[3]

---

[1] الأعراف الآية ١٤٨.

[2] تفسير أبي السعود، ج٣ ص٢٧٢.

[3] المرجع السابق، الجزء نفسه، الصحيفة نفسها.

﴿ الدراسة والتحليل ﴾

تأتي الآية الكريمة في سياق الحديث عن ذهاب موسي –عليه السلام– إلي الطور لمناجاة ربه.[١]

ومن هنا فالمقام في الآية للتقريع والتسفيه والتشنيع علي بني إسرائيل فيما أقدموا عليه من منكر وهو اتخاذهم العجل إلها. (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ)[٢].

ومن ثَّم فقد بني النظم علي الوصل حيث عُطف قوله "وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى" علي جملة "وَواعَدْنا مُوسى"[٣]، وهو من قبيل عطف القصة علي القصة، فذُكر فيما تقدم قصة المناجاة، وما حصل فيها من الآيات والعبر، وذُكر في هذه الآية ما كان من قوم موسي في مُدّة مغيبه في المناجاة من الإشراك.

وقد آثر النظم إسناد الاتخاذ في قوله: (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ) إلي قوم موسي مع أن المتخذ هو السامريّ، وهذا يحتمل وجهين: (أحدهما أن يُنسب الفعل إليهم لأن رجلاً منهم باشره ووُجد فيما بين ظهرانيهم، كما يقال: بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا، والقائل والفاعل واحد، ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذه راضين به فكأنهم أجمعوا عليه.

الثاني: أن يراد اتخذوه إلهًا وعبدوه.[٤] العجل وعبادتهم له تمَّ في مدة مغيب موسي–عليه السلام– في المناجاة، ومن ثم تبرئة موسي–عليه السلام– من رضاه بفعل بني إسرائيل، وهو أدخلُ في مقام التشنيع والتسفيه والتقريع الوارد فيه الآية؛

---

[١] الآيات ١٤٢–١٤٤.

[٢] الأعراف من الآية (١٤٢).

[٣] الأعراف من الآية (١٤٢).

[٤] تفسير الكشاف، للزمخشري، ج٢ ص١٥٩.

ولذا أوثر ذكرُ الجار والمجرور في قوله: " مِنْ حُلِيِّهِمْ"، وهو ضربٌ من أضرب تسفيههم وتحميقهم حيث اتخذوا إلهاً صنعوه من مادة ماثلة بين أيديهم فهو إله محدث هم الذين صنعوه، فكيف يتضرعون إليه ويعبدونه ويلتمسون جلب المنافع ودفع المضار؟ [١]

وقد اختير الحُلِيّ لصياغة العجل ليكون ميلهم إليه أتمّ ؛ لأنّ قلب الإنسان يميل حيث مالهُ سيَّما إذا كان ذهبًا أو فضة، يقول الإمام الآلوسي ـ رحمه الله ـ وكثيرٌ من الناس اليوم عبيدُ الدرهم والدينار وهما العجلُ المعنوي لهم وإن لم يسجدوا).[٢]

وفي قوله: (عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوارٌ) ضربٌ آخر من أضرب السفه والتحميق؛ إذ كيف يكون العجل المنكَّس التكوين إلهاً لمن خلقه الله وكرَّمه وصوّره في أحسن تقويم، وأودع فيع عقلاً يميّز به بين الصواب والخطأ، والحق والباطل، والواقع والوهم؟

هذا مع ما يشي به وصف (عجلاً) بـ(جسداً) من احتراس لدفع توهم غير المراد.فهذا العجل شكلٌ جماديّ لا روح فيه(جسد) يمرُّ فيه الهواء من جانب ويخرج من جانب فيُحدث صوتًا فراغيًا، ومع ذلك اتخذوه إلهاً يُعبدُ وهذا أدعي لتسفيههم وتحميقهم والتشنيع عليهم.[٣]

ومن هنا يأتي قوله: (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً) ضرباً ثالثاً من ضروب التسفيه والتحميق، فهذا الشكل الجاف لا يرُّد عليهم إذا دَعَوْه، ولا

(١) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، جـ١ صـ٤٠٥.

(٢) تفسير الآلوسي، ج٥ ص٨٠.

(٣) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، جـ١ صـ٤٠٥.

يهديهم إذا استهدوه، فكيف يكون إلهاً إلا عند قوم سيطر عليهم السفه والحمق والجهل.

ومن ثَّم فقد آثر النظم القرآني التعبير بالرؤية دون البصر أو النظر –هنا– لأن المراد تقريرهم برؤية عميقة ونافذة إلي المرئي، وهي علمهم بجماديّة هذا الشكل وخلوّه من كل علامات الحياة،فضلاً عن أن يكون له كلام وهداية؛ ومن ثَّم جاء الاستفهام للتقرير والتجهيل والتعجيب من حالهم؛ لأن الذي فعلوه لا يصدر عن ذي عقل وعلم، فهو في غاية الانحطاط والجهل والسفه؛ ولذلك جُعل الاستفهام عن نفي الرؤية؛ لأن نفي الرؤية هو غير الواقع من حالهم في نفس الأمر، ولكن حالهم يشبه حال من لا يرون عدم تكليمه فوقع الاستفهام عنه لعلهم لم يروا ذلك مبالغة.

ومن هنا نُزِّلّ المسئول عنه منزله من لايري؛ ولذلك قال في موضع آخر تعقيباً علي اتخاذهم العجل:) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا)[1][2].

ومن ثَّم يأتي قوله (اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ)[3]،استئنافاً للانتقال من تجهيلهم باتخاذهم العجل إلهاً وإعلامٌ بأن هذا الاتخاذ ليس أول حماقاتهم، فهم غارقون فيها من قبل ومن بعد، وهذا أدخل في مقام التقريع والتسفيه الوارد فيه الآية.

---

[1] طه الآية (٨٩).

[2] ينظر: بلاغة النظم القرآني في استعمال البصر والنظر والرؤية بين السياق والدلالة–رسالة ماجستير للباحث، إشراف ا.د علي عيسي، ود. عبد السلام مخلوف، ص١٩٩، كلية اللغة العربية بأسيوط٤٢٩هـ–٢٠٠٨م.

[3] الأعراف من الآية (١٤٨).

﴿ الخلاصة ﴾

من خلال ما سبق عرضه حول الآية الكريمة يتجلي لنا بوضوح أن الآية قد انطوت علي موضع للتقديم وهو تقديم الجار والمجرور (من بعده)علي مفعول (اتخذ) (عجلاً) والسرُّ في ذلك هو الاهتمام بالمقدم والتشويق إلي المؤخر.

كما يتجلي لنا أن التقديم في الآية الكريمة جاء ليفي بحق المقام ومقتضيات السياق- كما مرّ-.

﴿ الموضع الرابع ﴾

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [1].

يقول الإمام أبو السعود ـ رحمه الله ـ: (وتقديم ذكر ندمهم على هذه الرؤية مع كونه متأخراً عنها للمسارعة إلى بيانه والإشعار بغاية سرعته كأنه سابق على الرؤية.....وتقديم الرحمة على المغفرة مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي، وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم، وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم) [2].

﴿ موضع الشاهد في الآية ومغزاه ﴾

من خلال ما ذكره الإمام أبو السعود ـ رحمه الله ـ نجد أنه قد أشار إلى شاهدين من شواهد تقديم معنى على معنى في الآية الكريمة وهما:

الأول: تقديم ذكر ندمهم على الرؤية ـ والسر في ذلك ـ كما يرى الإمام أبو السعود ـ هو المسارعة إلى بيانه، والإشعار بغاية سرعته كأنه سابق على الرؤية.

الثاني: تقديم الرحمة على المغفرة مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية ـ والسر في ذلك كما يرى الإمام أبو السعود ـ رحمه الله ـ إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي، وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم.

---

(1) الأعراف، الآية، ١٤٩.

(2) تفسير أبي السعود ، جـ ٣ ، صـ ٢٧٣.

﴿ الدراسة والتحليل ﴾

تأتي الآية الكريمة في سياق الحديث عن تقريع وتسفيه بني إسرائيل فيما أقدموا عليه من منكر وهو اتخاذهم العجل إلهاً.

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾[1].

ومن ثم تأتي الآية في مقام تصوير ندم بني إسرائيل على اتخاذهم العجل بعدما تبينوا ضلالهم في هذا الأمر وبيان مصيرهم بعد ارتكاب جريرتهم.

ومن هنا فقد بني النظم على الاستئناف، حيث يأتي قوله- تعالى-: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ... ﴾ مسوقاً لبيان مصيرهم بعد ارتكاب جريرتهم.

وفي قوله . تعالى .: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ... ﴾ كناية عن صفة وهي الندم؛ فإن العادة أن الإنسان إذا ندم على شيء عضَّ بفمه على أصابعه، فسقوط الأفواه على الأيدي لازم للندم، فأطلق اللازم وأريد الملزوم على سبيل الكناية.. يقول الزمخشري: ("ولما سقط في أيديهم" ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يَعَضَّ يده غماً فتصير مسقوطاً فيها لأن فاه قد وقع فيها) [2].

ويصح أن يكون المعنى: سقط الندم في أيديهم. إما بطريق الاستعارة بالكناية أو بطريق التمثيل[3]، ويكون هذا على وجهين:

الأول: يشبه ما يحصل في النفس وما يحصل في القلب بما يحصل في اليد ويُرَى

---

(1) الأعراف، الآية: ١٤٨.

(2) الكشاف، الزمخشري، جـ ٢ ، صـ ١٦٢.

(3) ينظر: تفسير أبي السعود، جـ ٣ ، صـ ٢٧٣.

بالعين، وخُصَّت اليد بالذكر لأن مباشرة الذنوب بها.

فاللائمة ترجع عليها لأنها هي الجارحة العظمي، فيسند إليها ما لم تباشره، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾[1]، وكثير من الذنوب لم تقدمه اليد.

الثاني: أن الندم حدث يحصل في القلب، وأثره يظهر في اليد؛ لأن النادم يعَضُّ يده ويضرب إحدى يديه على الأخرى، كقوله: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾[2].

فتقليب الكف عبارة عن الندم، وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾[3]، فلما كان أثر الندم يحصل في اليد من الوجه الذي ذكر أضيف سقوط الندم إلى اليد؛ لأن الذي يظهر للعيون من فعل النادم هو تقليب الكف وعض الأنامل واليد كما أن السرور معنى في القلب يستشعره الإنسان، والذي يظهر منه حالة الاهتزاز والحركة وما يجري مجراه[4].

وعليه يكون السر البلاغي للكناية أو الاستعارة ـ هنا ـ هو المبالغة في شدة الندم والتحسر على اتخاذهم العجل. وهذا أدخل في مقام تصوير الندم والحسرة الوارد فيه الآية؛ ولذا أوثر التعبير بفعل الرؤية في قوله: (ورأوا أنهم قد ضلوا)

---

(1) الحج، من الآية: ١٠.

(2) الكهف، من الآية: ٤٢.

(3) الفرقان، من الآية ٢٧.

(4) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، تحقيق: الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ: علي محمد مُعَوَّض، جـ ٩ ، صـ ٣١٩، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

ومعناه هنا: تبيَّنوا ضلالهم باتخاذ العجل وعبادته كأنهم قد أبصروه بعيونهم[1].

ومن ثم فقد أوثر تقديم ذكر الندم على الرؤية مع كونه متأخراً عنها؛ لأن الندم والتحير إنما يقطعان بعد المعرفة فكأنه ـ تعالى ـ قال: ولما رأوا أنهم قد ضلوا سقط في أيديهم من عظيم الحسرة.

وعليه فالسر البلاغي للتقديم هنا هو المسارعة إلى بيانه والإشعار بغاية سرعته كأنه سابق على الرؤية[2].

ومن هنا يأتي قولهم: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ اعترافًا منهم بعظيم ما أقدموا عليه، وندماً على ما صدر منهم، ورغبة إلى ربهم في إقالة عثرتهم ؛ ولذا أكدوا التعليق الشرطي بالقسم الذي وطَّأتْهُ اللام وقدموا الرحمة على المغفرة لأنها سببها فهي مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم[3].

ومن هنا فقد سيق الشرط سوق الراجين في عفو الله وكرمه. هذا مع ما يشي به لفظ (ربنا) من إشعار بمعنى التربية والرعاية واتساع أملهم في الرحمة؛ ولذا أوثر مجيئ خبر كان مقترناً بحرف "مِنْ" التبعيضية لأن ذلك أقوى في إثبات الخسارة من لنكونن خاسرين.

ومن ثم يتلاقى التقديم في الآية الكريمة مع مقام الندم والحسرة الوارد فيه الآية.

---

(1) ينظر: مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، جـ ١٥، صـ ٣٧٠، وتفسير أبي السعود، جـ ٣، صـ ٢٧٣.

(2) ينظر: تفسير أبي السعود، جـ ٣ ، صـ ٢٧٣.

(3) ينظر: تفسير أبي السعود، جـ ٣ ، صـ ٢٧٣، وتفسير التحرير والتنوير، جـ ٩ ، صـ ١١٣.

﴿ الخلاصـة ﴾

من خلال ما سبق عرضه حول الآية الكريمة يتجلى لنا بوضوح أن الآية الكريمة قد اشتملت على موضعين من مواضع التقديم أشار إليهما الإمام أبو السعود وبين السر فيهما، وهما:

الأول: تقديم ذكر الندم على الرؤية مع كونه متأخراً عنها، والسر في ذلك هو المسارعة إلى بيانه والإشعار بغاية سرعته كأنه سابق على الرؤية.

الثاني: تقديم الرحمة على المغفرة مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية. والسر في ذلك أن الرحمة سبب في المغفرة؛ فهي مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم.

كما يتجلى لنا أن التقديم في الموضعين جاء ليفي بحق المقام ومقتضيات السياق – كما مر –.

﴿ الموضع الخامس ﴾

قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

يقول الإمام أبو السعود ـ رحمه الله ـ : (وتقديم الأمر بالدخول على الأمر بالقول المذكور في سورة البقرة غيرُ مُخِلٍّ بهذا الترتيب؛ لأن المأمور به هو الجمع بين الفعلين من غير اعتبار الترتيب بينهما) [2].

﴿ موضع الشاهد في الآية ومغزاه ﴾

من خلال ما ذكره الإمام أبو السعود ـ رحمه الله ـ نجد أنه قد اشار إلى شاهد التقديم في الآية وهو تقديم الأمر بالدخول على الأمر بالقول المذكور في سورة البقرة، ويرى الإمام أن هذا التقديم غير مخل بهذا الترتيب؛ لأن المأمور به هو الجمع بين الفعلين من غير اعتبار الترتيب بينهما.

ومن ثم فنوع التقديم ـ هنا ـ هو تقديم معنى على معنى.

كما ـ نلحظ أن الإمام أبا السعود ـ رحمه الله ـ قد اكتفى بما ساقه من تعليل للتقديم في الآية الكريمة ولم يستطع أن يوقفنا على سر دقيق للتقديم.

﴿ الدراسة والتحليل ﴾

تأتي هذه الآية الكريمة في مقام الذم والتأنيب لبني إسرائيل على عدم

([1]) الأعراف، الآية: ١٦١.

([2]) تفسير أبي السعود، جـ ٣ ، صـ ٢٨٣.

اتعاظهم رغم إنعام المولى ـ تبارك وتعالى ـ عليهم.

وبالنظر إلى شاهد التقديم في الآية الكريمة وهو تقديم الأمر بالدخول على الأمر بالقول المذكور في سورة البقرة[١]، نلحظ أن المفسرين يرون أنه يحسن تقديم كلٍّ واحد من هذين الذكرين على الآخر؛ لأن المقصود منهما تعظيم الله ـ تعالى ـ، وإظهار الخضوع والخشوع، ومن ثم لم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير. وإن اختلفت عبارات المفسرين في الدلالة على ذلك [٢].

حتى إن الإمام الزمخشري – رحمه الله – وقف على هذا الخلاف على استحياء ولم يشأ الدخول في غماره وأعماقه، فاكتفى بقوله: (لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض، ولا تناقض بين قوله: (اسكنوا هذه القرية وكلوا منها) وبين قوله: (فكلوا)؛ لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناها للأكل منها، وسواء قدَّموا الحطة على دخول الباب أو أخَّروها، فهم جامعون في الإيجاد بينهم، وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته) [٣].

أما الشيخ الشعراوي ـ رحمه الله ـ فقد عَلَّلَ للتقديم بقوله (جاء الحق بهذا الاختلاف لأنه علم أن انفعالات السامعين تختلف ساعة الدخول، فهناك من ينفعل للقول، فيقول أول دخوله ما أُمِرَ به من طلب الحطة وغفران الذنب من الله، وهناك آخر ينفعل للفعل فيسجد من فور الدخول تنفيذاً لأمر الله) [٤].

وبالنظر إلى ما أورده المفسرون حول سر التقديم في الآية الكريمة نجد

---

(١) البقرة، الآية ٥٨.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، جـ ١٥ صـ ٣٨٩، وتفسير أبي السعود ، جـ ٣ ، صـ ٢٨٣، وتفسير الآلوسي، جـ ٥ ، صـ ٨٣، والبحر المحيط، أبو حيان، جـ ٥ ، صـ ٢٠١.

(٣) الكشاف ، جـ ٢ صـ ١٧٠.

(٤) تفسير الشعراوي (الخواطر) جـ ٧ صـ ٤٤٠١.

أنه لا ينْقَعُ غُلةً؛ ولا يروي ظمأً؛ لأن السؤال يظل قائماً لماذا قَدَّم هنا ما أخَّر هناك وأَخَّر ما قَدَّم؟

والذي تميل إليه النفس هو أن السياق قد اختلف في الآيتين فأدى إلى معان بلاغية دقيقة؛ فقد جاء صدر الآية في السياق الأول (آية البقرة) بالفعل المبني للمعلوم بإثبات (نا) لله ـ تعالى ـ على التعظيم فقال: (وإذ قلنا) فتناسب ذلك المقام ذكر (رغداً) على التنكير التفخيمي.

ولما كان الدخول في قوله: (ادخلوا هذه القرية) غير السكن في قوله: (اسكنوا هذه القرية)؛ لأن السكن يعني اللُّبْث والإقامة والاطمئنان فقد جاء في السياق الأول الفاء في (فكلوا) والثاني (وكلوا) وقدم (وادخلوا الباب سجداً) على قوله: (وقولوا حطة) في سورة البقرة وأخر ما في الأعراف؛ لأن السابق على هذه السورة (ادخلوا) فبيَّن كيفية الدخول، ولم يبدأ بالسجود هنا ـ لأن السجود من أقرب ما يكون العبد لربه وهم في السياق –هنا – مبعدون عن ربهم لمعاصيه، وبُدِئَ به في آية "البقرة" لأن المقام فيها للتكريم، كما أن تقديم السجود أمر مناسب للأمر بالصلاة الذي جاء في سياق السورة "وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا عم الراكعين" والسجود من أشرف العبادات، وفي آية "البقرة" قال: (وسنزيد) بواو، وفي الأعراف (سنزيد) بغير واو، لأن اتصالها في هذه الآية أشد لاتفاق اللفظين، واختلفا في الأعراف فكان اللائق به (سنزيد) فحذف الواو ليكون استئنافاً للكلام[1].

(1) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن، الكرماني، تحقيق: عبد القادر عطا، صـ ٢٨ ـ ٣٠ ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ، الشيخ / زكريا الأنصاري، تحقيق: بهاء الدين عبد الموجود، تقديم ومراجعة: أ. د/ علي معبد فرغلي، صـ ١٢ ، ١٣، دار الكتاب الجامعي أسيوط ، دون تاريخ، والإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ـ دراسة وتطبيق، محمد السيد موسى ، صـ ٧٩، مكتبة الإيمان ـ المنصورة، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

﴿الخلاصة﴾

من خلال ما سبق عرضه حول الآية الكريمة يتجلى لنا بوضوح أنها اشتملت على موضع للتقديم وهو تقديم الأمر بالدخول على الأمر بالقول المذكور في سورة البقرة. وأن هذا التقديم يتلاقى مع الغرض المسوق له الكلام، كما أنه يفي بحق المقام الوارد فيه الآية – كما مر –.

الفصل الثالث

أسرار التقديم والتأخير

في سياق الحديث عن أحوال المعاندين

❁❁❁❁

- ويشتمل علي مبحثٍ واحدٍ:

- المبحث الأول: أسرار التقديم والتأخير في سياق الحديث عن المشركين.

❁❁❁❁

المبحث الأول

أسرار التقديم والتأخير

في سياق الحديث عن المشركين.

﴿ الموضع الأول ﴾

قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

يقول الإمام أبو السعود ـ رحمه الله ـ : (ولعلَّ تقدَيم المقَّدم للإيذان منهم بأن آباءهم إنما كانوا يفعلونها بأمر الله ـ تعالى ـ بها على أن ضمير (أمرنا) لهم ولآبائهم) [2].

﴿ موضع الشاهد في الآية ومغزاه ﴾

من خلال ما ذكره الإمام أبو السعود ـ رحمه الله ـ نجد أنه قد أشار إلى موضع التقديم في الآية وهو تقديم معنى على معنى حيث قدم اعتذارهم بفعل آبائهم على اعتذارهم بأمر الله لهم بها ـ حسب زعمهم ـ والسر في ذلك كما يرى الإمام هو الإيذان بأن آباءهم إنما كانوا يفعلونها بأمر الله – تعالى –.

﴿ الدراسة والتحليل ﴾

تأتي هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن المُقلِّدين لآبائهم، وتعليل إشراكهم بأنه مشيئة الله، ولو لم يشأ لآمنوا، ومن ثم فالمقام هنا هو لتشنيع معذرتهم وفساد حجتهم.

ومن هنا فقد بُنِيَ النظم على الوصل حيث عطفت هذه الجملة (وإذا فعلوا

(1) الأعراف، الآية: ٢٨.

(2) تفسير أبي السعود، جـ ٣ ، صـ ٢٢٣.

فاحشة..) على قوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1]، بياناً لبعض آثار ولاية الشياطين للذين لا يؤمنون، ففي الآية السابقة جعل أمارتهم في ولاية الشيطان عدم الإيمان وفي هذه الآية عطف على ذلك أمارة أخرى وهي أنهم يطيعون الشياطين في إغوائهم في أقبح الأشياء ولا يشعرون بقبحها.

ومن ثم فقد عطفت الواو – هنا – هذه الجملة على جملة الموصول وصلته قبلها وهي: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾؛ لأن معنى الموصول وصلته: هم المشركون الكافرون.

وقد آثر النظم الكريم التعبير بـ (إذا) على (إنْ) للإيذان بأن المشركين لا يَنْفكُّون عن عمل الفواحش، وأن وقوع الفواحش منهم أمر محقق. هذا مع ما يشي به تنكير (فاحشة) من التهويل والتفظيع[2].

وأيُّ فاحشة أفظع من طوافهم بالبيت عُرَاةً رجالاً ونساءً؟

وعليه فإن قوله: (قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) لا يصح جعله وحده جواب (إذا) إلا أن يقدر الكلام: إذا فعلوا فاحشة ونهاهم عنها ناهٍ قالوا، ومن ثم ففي العبارة إيجاز بالحذف دل على المحذوف سياقُ الكلام. كما أن في (عليها) إيجازاً آخر، لأن التقدير: وجدنا على فعلها آباءنا[3].

وقد أوثر تقديم اعتذارهم بفعل آبائهم على اعتذارهم بأمر الله لهم بها . حسب زعمهم . وهو أقوى في الاعتذار لو كان صدقاً ليدخلوا أباءهم في الاعتذار

---

(1) الأعراف، من الآية: ٢٧.

(2) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، د/ عبد العظيم المطعني، جـ ١ ، صـ ٣٦٦.

(3) ينظر:المرجع السابق ،الجزء نفسه، الصحيفة نفسها.

عنهم معهم بأن الله أمرهم جميعاً بالفحشاء[1]، وفي (بها) إيجاز بالحذف والتقدير أمرنا بفعلها.

كما أوثر تصدير جملة (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) بفعل الأمر (قل) للاهتمام بالقول وكونه رسالة خاصة تجب المواجهة بها وتُؤَدَّي فور تلقِّيها من الله-عز وجل-وتوكيد الخبر بـ (إنَّ) واسمية الجملة لتوكيد الإنكار في الاستفهام الذي وليها.

وقد أُوثر التعبير بالفعل المضارع المنفي بـ (لا) على الماضي؛ لأن الفعل الماضي لا يدل إلا على النفي فيما مضى، ويبقي الأمر في الحال أو الاستقبال مسكوتاً عنه ومحتمل الوقوع. فلما قال: (لا يأمر بالفحشاء) صار نفي الأمر بالفحشاء سُنَّةً مطرِّدة لله في جميع الأوقات.

ومن ثم فقد بني النظم على الاستفهام في قوله: (أتقولون على الله ما لا تعلمون) وهو ـ هنا ـ للإنكار[2]، أي: إنكار الواقع، وهو قولهم: (والله أمرنا بها). يقول الإمام أبو السعود: (والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، وتوجيه الإنكار والتوبيخ إلى قولهم عليه ـ تعالى ـ ما لا يعلمون[3]) .

وقد أفاد التعبير بالمضارع (تقولون) الدلالة على تجدد هذا المقول المفترَي منهم، وأن هذه الجريمة لم تقع منهم مرة واحدة بل مرات ومرات. كما أفاد الخروج على خلاف مقتضى الظاهر بوضع المظهر (اسم الجلالة) موضع المضمر (عليه) لتقدم ذكره المبالغةَ في استقباح هذا القول.

كما يشي الالتفات من الغيبة (فعلوا) إلى الخطاب في (أتقولون) بالزجر

---

(1) ينظر: تفسير أبي السعود ، جـ ٣ ، صـ ٢٢٣.

(2) ينظر: تفسير الكشاف ، جـ ٢ ، صـ ٩٩.

(3) تفسير أبي السعود ، جـ ٣ ، صـ ٢٢٣.

والتأنيب لهؤلاء المشركين المعاندين[1]، وهذا أدخل في مقام تشنيع معذرتهم وبيان فساد حجتهم الوارد فيه الآية.

ومن ثم فقد آثر النظم الكريم التعبير بالعلم دون الفقه في قوله: (ما لا تعلمون) والنكتة في ذلك أن الله ـ عز وجل ـ ينكر عليهم قولهم: (الله أمرنا بها)؛ لأنه قول لا يعلمونه عن الله ـ تعالى ـ بل يفترونه عليه ومن هنا فلا يصح أن يقال: "ما لا تفقهون" لأن الإنكار عندئذ سيكون التدبر والتأمل الذي هو مفهوم الفقه، لا العلم به عن الله ـ تعالى .. فيكون المعنى على أنهم علموه لكنهم لم يفقهوه، والمعنى على غير ذلك، فالآية نفت العلم من أساسه لأن الله لم يقله لهم، فضلاً عن نفي الفقه له؛ لأن نفي الأعم ـ وهو العلم ـ يقتضي نفي الأخصّ وهو الفقه[2].

﴿الخلاصة﴾

من خلال ما سبق عرضه حول الآية الكريمة نجد أنها قد اشتملت على شاهد من شواهد تقديم معنى على معنى وهو تقديم اعتذار المشركين عن فعل الفاحشة بفعل آبائهم عن اعتذارهم بأمر الله بها ـ حَسْبَ زعمهم ـ والسر في ذلك هو إدخال آبائهم في الاعتذار عنهم بأن الله أمرهم جميعاً بالفحشاء.

كما يتجلى لنا أن التقديم في الآية الكريمة جاء ليفي بحق المقام ومقتضيات السياق – كما مر –.

❁❁❁❁

(1) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، جـ ١، صـ ٣٦٧.

(2) ينظر: العلم والفقه والمعرفة فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، د/ محمود موسي حمدان، صـ ٦٨، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

﴿ الموضع الثاني ﴾

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[1].

يقول الإمام أبو السعود ـ رحمه الله ـ: (ولقد ذرأنا لجهنم أي لدخولها والتعذيب بها، وتقديمه على قوله ـ تعالى ـ: (كثيراً) أي خلق كثير مع كونه مفعولاً به لما في توابعه من نوع طول يؤدي توسيطه بينهما وتأخيره عنها إلى الإخلال بجزالة النظم الكريم، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لـ (كثيراً) أي: كائناً منهما، وتقديم الجن لأنهما أعرق من الإنس في الإنصاف بما نحن فيه من الصفات وأكثر عدداً وأقْدَمُ خَلْقاً) [2].

﴿ موضع الشاهد في الآية ومغزاه ﴾

من خلال ما ذكره الإمام أبو السعود ـ رحمه الله ـ نجد أنه قد أشار إلى شاهدين من شواهد التقديم، وهما:

الأول: تقديم الجار والمجرور (لجهنم) على (كثيراً) مفعول (ذرأنا)، والسر في ذلك كما يراه الإمام هو لما في توابعه من نوع طول يؤدي توسيطه بينهما وتأخيره عنها إلى الإخلال بجزالة النظم الكريم.

الثاني: تقديم الجن والإنس والسر في ذلك ـ كما يرى الإمام ـ هو أن الجن أعرق من الإنس في الاتصاف بما نحن فيه من الصفات وأكثر عددًا وأقدم خَلْقًا.

([1]) الأعراف، الآية ١٧٩.

([2]) تفسير أبي السعود، جـ ٣ ، صـ ٢٩٥.

﴿ الدراسة والتحليل ﴾

تأتي الآية الكريمة في سياق الحديث عن ذم الكفار في عدم إذعانهم للقرآن وعدم قبولهم الآيات المرئية[١].

ومن ثم فالغرض في الآية هو نفي الفقه والإبصار والسمع عن آلاتها الكائنة فيها.

وعليه فالمقام في الآية هو تسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ببيان كثرة الغاوين الضالين المتبعين لإبليس من الجن والإنس.

ومن ثم فقد بُني النظم على التوكيد بلام القسم و(قد) وقد أفاد التأكيد هنا تحقيق الخبر؛ لأن غرابته تُنَزِّلُ سامعه خالي الذهن منه منزلة المتردد في تأويله، ولأن المُخْبَر عنهم قد وصفوا بـ ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ والمعنى يهم المشركون وهم ينكرون أنهم في ضلال ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وكانوا يحسبون أنهم أصحاب أحلام وأفهام[٢].

كما أوثر التعبير بالفعل (ذرأ) دون (خلق وأنشأ) لما فيه من دلالة على الكثرة والإنماء؛ لأن معناه: أنشأ شيئاً وكثَّرَة. فأطلق على الإنماء لأن إنشاء شيء تكثيرٌ وإنماء[٣]، وهذا يتلافى مع الضالين المتبعين لإبليس من الجن والإنس.

---

(١) الأعراف، الآيتان: ١٧٧ ـ ١٧٨

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، جـ ٩ ، صـ ١٨٢.

(٣) ينظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، صـ ٣٢٧، والفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم سليم، جـ ١، صـ ٩٣٨، دار العلم والثقافة ـ القاهرة ـ مصر، بدون تاريخ.

والـلام فـي (لجهـنم) للتعليـل؛ أي: خلقنـا كثيـراً لأجـل جهـنم ومـن ثـم فجهـنم ـ هنـا ـ مستعملة فـي الأفعـال الموجبـة المفضـية إلـى الكـون فـي جهـنم ولـم يُخْلَقُـوا لأجـل جهـنم؛ لأن جهـنم لا يقصـد إيجـاد خلـق لتعميرهـا[1]، وعليـه فقـد أوثـر تقـديم (لجهـنم) ـ هنـا ـ علـى المفعـول (كثيـراً) ليظهـر تعلقـه بـ (ذرأنـا)، كمـا أوثـر تقـديم (الجـن) علـى (الإنـس) فـي الآيـة لأن المقـام فـي الآيـة الكريمـة لبيـان كثـرة الغـاوين الضـالين المتبعـين لإبلـيس مـن الجـن والإنـس، ومـن ثـم فالحـديث . هنـا . عن دخـول النـار، ولمـا كـان عصـاة الجـن أكثـر مـن عصـاة الإنـس والكفـر مـنهم أعظـم وأكثـر، فـإذا كـان مـن الإنـس مسـلمون وكـافرون، وكـان لكـل واحـد مـن عصـاة الإنـس قـرين كـافر مـن الجـن، هـذا عـدا بقيـة مـن كفـر مـنهم علمنـا يقينًـا أن أهـل النـار مـن الجـن أكثـر مـن الإنـس ، قـال ـــ تعـالى ـــ: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾[2][3].

روى مسلمٌ في صحيحه[4]، وأحمدُ في مسنده[5]، والدَّارِمِيُّ في سنُنَه[6]، عن

(1) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، جـ ٩، صـ ١٨٣.

(2) الزخرف، الآية: ٣٦.

(3) ينظر: دلالات التقديم في القرآن الكريم، د/ محمود المسيري، صـ ٣٨٢.

(4) صحيح مسلم، جـ ٤ ، صـ ٢١٦٧، رقم (٢٨١٤) كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبَعْثِهِ سراياه لفتنة الناس.

(5) مسند أحمد، جـ ٦ صـ ١٥٩، رقم (٣٦٤٨) تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعادل مرشد وأخرون، إشراف د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ، الرسالة الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

(6) سنن الدارِمي، تحقيق: حسين سليم أسد، جـ ٣ ، صـ ١٧٩٨، حديث رقم (٢٧٧٦) كتاب (الرقاق)، باب (ما منكم أحد إلا ومعه قرينُه من الجن)، دار المغني، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ٢٠٠٠م .

عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكِّلَ به قرينهُ من الجن، قالوا: وإيَّاكَ يا رسولَ الله ؟ قال: وإيَّايَ إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرُني إلا بخير).

وثَمَّةَ سبب آخر لتقديم (الجن) على (الإنس) في الآية الكريمة وهو تعيُّن كَوْنِ الصفات الواردة من بَعْدُ صفات للإنس وبقرينة قوله: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ﴾[1].

ولما كان السياق في الآية لنفي الفقه والإبصار والسمع فقد جاءت الآية على هذا النظم ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا . . . ﴾ حيث سلك طريق الترقي من القلوب التي هي مقرُّ المدرَكات إلى آلات الإدراك الأعين ثم الآذان، فالأذان المرتبة الأولى في الارتقاء، ومن ثم فليس في تقديم الأعين على الآذان مخالفة لما جرى عليه اصطلاح القرآن من تقديم السمع على البصر لتشريف السمع بتلقي ما أمر الله به[2].

فقد تقدم في الآية نفي الفقه الذي يكون للخاصة ثم تبعه نفي السمع والبصر اللذين يشترك فيهما جميع الناس، ويصيبون بهما العلم تصوراً ثم تصديقاً، فكان في هذا ترقٍّ في وصفهم بالضلال والجهل من حالة إلى حالة هي أسوأ منها؛ إذ عدم الإدراك الذي يشترك فيه الكثرة أسوأ من عدم الفقه الذي هو للخاصة[3]،ومعنى نفي الفقه والإبصار والسمع عن آلاتها الكائنة فيهم أنهم عطَّلوا أعمالها بترك استعمالها في أهم ما تصلح له وهو معرفة ما يحصل به الخير الأبدي؛ لأن آلات الإدراك والعلم خلقها الله لتحصيل المنافع ودفع المضار، فلما لم

(1) ينظر: التحرير والتنوير، جـ ١، صـ ١٨٣.

(2) ينظر: المرجع السابق، جـ ٩ ، صـ ١٨٤.

(3) ينظر: العلم والفقه والمعرفة، مرجع سابق، صـ ١٨.

يستعملوها في جلب أفضل المنافع ودفع أكبر المضار، نفى عنهم عملها علي اوجه العموم للمبالغة؛ لأن الفعل في حيز النفي يعم مثل النكرة. يقول الإمام الزمخشري – رحمه الله –: (وجعلهم في أنهم لا يُلْقُون أذهانهم إلى معرفة الحق ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار، ولا يسمعون، ما يُتْلَى عليهم من آيات الله سماع تدبر، كأنهم عدموا فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الآذان) [1]؛ ولذا فقد حذف المفعول مع الأفعال الثلاثة (يفقهون ـ يبصرون ـ يسمعون) وهذا أبلغُ في ذمّهم وأنسبُ في المبالغة في نفي عمل هذه الآلات؛ إذ المعنى على هذا الحذف: لهم قلوب ليس من شأنها أن يفهموا بها شيئاً مما شأنهُ أن يُفهَم فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دخولاً أولياً، (ولهم أعين لا يبصرون بها) المراد: لا يبصرون بها شيئاً من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجاً أولياً، (ولهم آذان لا يسمعون بها) يراد: لا يسمعون بها شيئاً من المسموعات فيتناول الآيات التنزيلية[2].

ومن ثم فالمراد بالإبصار والسماع المنفْيين ـ هنا ـ ما يختص بالعقلاء من الإدراك على ما هو وظيفة الثقلَيْن لا ما يتناول مجرد الإحساس بالشبح والصوت كما هو وظيفة الأنعام[3].

هذا مع ما تشي به إعادة الخبر في الجملتين المعطوفتين مع انتظام الكلام بأن يقال: (وأعين لا يبصرون بها) وآذان لا يسمعون بها) من الإشارة إلى الشهادة بكمال رسوخهم من الجهل والغواية[4].

ومن ثم فالكاف في قوله: (كالأنعام) للتشبيه في صفة معنوية، وهي عدم

---

(1) تفسير الكشاف، جـ ٢ ، صـ ١٧٩.

(2) ينظر: تفسير الآلوسي، جـ ٥ ، صـ ٤٠٢.

(3) ينظر: المرجع السابق، الجزء نفسه، الصحيفة نفسها.

(4) ينظر: تفسير أبي السعود، جـ ٣ ، صـ ٢٩٥.

النظر والاعتبار لعدم العقل في المشبَّه به تحقيقاً، وفي المشبه تنزيلاً، فالثمرة فيهما معدومة واختلاف الطرفين جنساً واضح. ونظير هذه الآية قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1][2].

﴿الخلاصة﴾

من خلال ما سبق عرضه حول الآية الكريمة نجد أنها قد اشتملت على ثلاثة شواهد للتقديم ، أشار إلى شاهدين منهما الإمام أبو السعود، ولم يتطرَّق إلى الثالث.

والشاهدان اللذان ذكرهما الإمام أبو السعود هما:

١- تقديم الجار والمجرور (لجهنم) على (كثيراً) مفعول (ذرأنا).

٢- تقديم (الجن) على (الإنس).

والشاهد الثالث الذي لم يذكره الإمام أبو السعود هو تقديم القلوب على الأعين والآذان.

وقد سبق بيان أسرار التقديم في كل شاهد وكيف أنها جاءت لتفي بحق المقام ومقتضيات السياق.

---

(١) الفرقان، الآية: ٤٤.

(٢) ينظر: أدوات التشبيه دلالاتُها واستعمالاتُها في القرآن الكريم، د/ محمود موسى حمدان، صـ ١٥٣، مكتبة وهبة ـ القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

﴿ الموضع الثالث ﴾

قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

يقول الإمام أبو السعود ـ رحمه الله ـ: (وقوله ـ تعالى ـ: "لوقتها" أي: في وقتها قَيْدٌ للتجْلِية بعد ورود الاستثناء عليها لا قبله كأنه قيل: لا يجليها إلا هو في وقتها إلا أنه قُدِّمَ على الاستثناء للتنبيه من أول الأمر على أن تجليتها ليست بطريق الإخبار بوقتها بل بإظهار عينها في وقتها الذي يسألون عنه) [2].

﴿ موضع الشاهد في الآية ومغزاه ﴾

من خلال ما ذكره الإمام أبو السعود ـ رحمه الله ـ نجد أن الآية الكريمة قد اشتملت على موضع للتقديم وهو تقديم الجار والمجرور (لوقتها) على الاستثناء (إلّا هو) وهو من تقديم المتعلقات. والسر في التقديم ـ هنا ـ كما يرى الإمام هو التنبيه من أول الأمر على أن تجليتها ليست بطريق الإخبار بوقتها بل بإظهار عينها في وقتها الذي يسألون عنه.

﴿ الدراسة والتحليل ﴾

تأتي الآية الكريمة في سياق الحديث عن سؤال المشركين النبيَّ – صلى الله عليه وسلم .– عن وقت قيام الساعة وتلقينه .–صلى الله عليه وسلم –الجواب.

وعليه فالخطاب في (يسألونك) للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسئول

---

(1) الأعراف، الآية: ١٨٧.

(2) تفسير أبي السعود، جـ ٣، صـ ٣٠١.

عنه هو يوم القيامة.

والخلاف في السائل من هو؟

هل اليهود؟ أم مشركو العرب؟ أم المؤمنون؟

فإذا كان اليهود فالسؤال عن الساعة المراد منه الاختبار والامتحان.

وإن كان مشركو العرب فالمراد من السؤال الاستبعاد والإنكار.

وإن كان السائل هم المؤمنين فالمراد من السؤال الاستيضاح والاستعلام.

ومن يرجع إلى ما قاله الأئمة يجدهم قد حصروا اهتمامهم على التقديرين الأولين دون الثالث[1].

ومن ثم فقد أوثر التعبير بالمضارع (يسألونك) إشارة إلى أن السؤال لم يقع مرة واحدة ولا مرتين، ولا ثلاثاً، بل كان يتردد على ألسنة السائلين.

وهذا يرجِّح أن السائل ليسوا هم اليهود وحدهم، ولا هم مع المشركين، إذ لو كان الأمر كذلك لما عُبرِّ عن السؤال بالمضارع الدال على الكثرة والذي أيده ما جاء في الآية الأخرى: ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ﴾[2][3].

كما أوثر العدول عن (متى) إلى (أيان) وقد أفاد هذا تفخيم السؤال؛ لأن (أيان) مركبة من (أَيْ) و(آن) بمعنى وقت، ومن ثم فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وفي (مرساها) استعارة تصريحية حيث شبه وقوع الساعة واستقرار أمرها بالمرسى الذي ترسو فيه السفن. فتُرَى ـ أي الساعة ـ بالعين ويؤمن بها من لم يكن

---

(1) ينظر: تفسير الكشاف، جـ ٢ ، صـ ١٣٤، وتفسير أبي السعود ، جـ ٣ ، صـ ٣٠٠، وتفسير الآلوسي، جـ ٩ ، صـ ١٣٢، والتحرير والتنوير، جـ ٩ ، صـ ٢٠٠.

(2) الأحزاب، من الآية: ٦٣.

(3) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، مرجع سابق، جـ ١، صـ ٤٢٩.

قد آمن بها من قبل، وينقطع التطلع إليها، والاستفهام ـ هنا ـ عن معرفة الوقت الذي ستكون فيه، و(أيان مرساها) بدل اشتمال من (يسألونك عن الساعة) أو عطف بيان كاشف لما تضمنه السؤال في (يسألونك) [١].

ومن ثم يأتي الجواب في قوله ـ تعالى ـ: (قل إنما علمها عند ربي) حيث صُدِّرت الجملة بفعل الأمر (قل) للإشعار بأهمية المقول ومواجهة المأمور بمواجهتهم. وهي أسلوب قصر صفة على موصوف، والصفة المقصورة وهي العلم بوقت قيام الساعة. والمقصور عليه هو (ربي) أي: الله، وأوثر (رب) مضافاً إلى ضمير المخاطب المتكلم وهو النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما في (رب) من صلاحية الإضافة التي يقتضيها المقام هنا أيْ قل لهم: علمها مختص به (ربي) ولو كان الله مُطْلَعاً أحداً على أسرار الساعة لأطلعني عليها لأنه ربي الذي أرسلني فأنا أقرب منزلة منه[٢].

وعليه فقه أوثر الفصل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِ لاَ هُوَ﴾. ولم تعطف على ما قبلها بـ (الواو) مع أن الجملتين من مقول القول؛ لأن الجملة الثانية (لا يجليها لوقتها إلا هو) بدل اشتمال من الجملة الأولى (علمها عند ربي) وهي جملة قصرية قصرت فيها صفة التجلية على ضمير اسم الجلالة (هو) وهذا القصر حقيقي تحقيقي، كما أوثر تقديم المجرور وهو (لوقتها) على فاعل (يجليها) الواقع استثناءً مفرغاً للاهتمام به تنبيهاً على أن تجلية أمرها تكون عند وقت حلولها؛ لأنها تأتي بغتة[٣].

وعليه فقد أفاد تقديم الجار والمجرور– هنا – التنبيه من أول الأمر على

---

(١) ينظر: المرجع السابق، الجزء نفسُه، الصحيفة نفسُها.

(٢) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، مرجع سابق، جـ ١ ، صـ ٤٣٠.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، جـ ٩ ، صـ ٣.

أن تجليتها ليست بطريق الإخبار بوقتها بل بإظهار عينها في وقتها الذي يسألون عنه[١].

ومن ثم يتلاقى التقديم ـ هنا ـ مع المقام الوارد فيه الآية وهو بيان استمرار تلك الحالة إلى حين قيامها، والإقناط الكلي عن إظهار أمرها بطريق الإخبار من جهته ـ تعالى ـ أو من جهة غيره (لاقتضاء الحكمة التشريعية إياه فإنه أدعى إلى الطاعة وأزجَرُ عن المعصية، كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذاك)[٢].

ومن هنا يأتي قوله ـ تعالى ـ : ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ استئنافاً مبيناً لبعض أهوال الساعة. وفي (ثقلت) استعارة تبعية لاشتدت أي اشتد أمرها في أعلى الكون وأسفله لغوابة أحوالها وفظاعة أهوالها، واقتراب وقوعها. وفي إسناد الثقل إلى ضمير الساعة، وهي زمن مجاز عقلي علاقته الزمانية؛ لأن الثقيل حقيقة هو الأحداث والأهوال التي ستقع في ذاك الزمن المعلوم لله وحده. وفي هذا إنذار وتخويف من مشتقّتها لكي يستعد الناس لها ويخشون آخرتها وسوء المصير فيها[٣].

ولما كان المقام في الآية هو الإقناط الكلي من إظهار أمرها بطريق الإخبار من جهته ـ تعالى ـ أو من جهة غيره فقد جاء قوله ـ تعالى ـ (لا تأتيكم إلا بغتة) تيئيساً للسائلين عن معرفة وقتها ـ وهي جملة قصرية قصرت فيها صفة الإتيان على موصوف هو البعث. والاستثناء مفرغ من جميع الأحوال إلا حال المباغتة، وفي إسناد الإثبات إلى الساعة مجاز عقلي علاقته المفعولية أما المؤتِي فهو الله ـ تعالى ـ وسرُّ هذا المجاز، التخييل بأن الساعة هي التي تسعى نحو الناس ليُجَازَي

(١) ينظر: تفسير أبي السعود، جـ ٣ ، صـ ٣٠١.
(٢) المرجع السابق، الجزء نفسُه، الصحيفة نفسُها.
(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، جـ ٩ ، صـ ٢٠٣.

كل امرئ بما كسب[1].

ومن ثم يأتي قوله ـ تعالى-: ﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ تشبيهاً جاء فيه المشبه والمشبه به وصفاً مشتقاً، قال الراغب: (الإحفاء في السؤال التَّنَزُّعُ في الإلحاح في المطالبة أو في البحث في تعريف الحال) [2]، والمعنى: كأنك عالم بها، أو كأنك تعلمها، أو كأنك مجتهد في السؤال عنها، قال الزمخشري: (كأنك عالم بها، وحقيقته: كأنك بليغ في السؤال عنها) [3].

ومن هنا فالتشبيه ليس تشبيهاً للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنفسه في صفة الاجتهاد في السؤال عن الساعة لمعرفة وقتها، لأنه لم يكن منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك ولتَعيُّن اختلاف المشبه والمشبه به ذاتاً أو حالاً، فالتشبيه هنا قائم على تقدير موصوف محذوف، والمعنى: أي أنت ـ وهم يكثرون سؤالك عنها ـ تُشبه إنساناً عالماً بها مُعْتَنٍ بأمرها يسألونه عنها. وعليه فليس المشبه والمشبه به متحَديْن[4].

وعليه يكون قوله ـ تعالى ـ : (يسألونك كأنك حفي عنها) جملة تشبيهية شبه فيها صاحبُ الرسالة وهو لا يعلم عن وقت الساعة شيئاً بمن هو عالم بها، ظانّين أنه كان يلح على ربه أن يعلمه وقت وقوعها فأعلمه. وهذا ظن مخطئ لذاك ردّه الله بقوله: (قل إنما علمها عند الله) وإيثار اسم الجلالة (الله) هنا لتربية المهابة في نفوس السائلين الذين ألحوا في السؤال ومن ثم يأتي قوله: (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) تعريضاً بالسائلين ونعياً عليهم بالجهل بحقائق الإيمان ولو كانوا

(1) ينظر: التفسير البلاغي الاستفهام في القرآن الكريم، مرجع سابق، جـ ١، صـ ٤٣٠، ٤٣١.

(2) المفردات في غريب القرآن، الراغب، صـ ١٢٥.

(3) الكشاف، جـ ص، صـ ١٣٤، وينظر: جامع البيان، جـ ٩ ، صـ ١٤٠، والبحر المحيط : جـ ٤، صـ ٤٣٥.

(4) ينظر: أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم، مرجع سابق، صـ ٧٩.

عالمين باختصاص الله بها ما سألوا[1].

وقد أوثر تذييل الآية بقوله: (لا يعلمون) دون (يفقهون) أي: لا يعلمون القول بأن (علمها عند الله) ويجهلون أن الله هو العالم بوقتها دون غيره، فأكثروا السؤال عن وقتها.

ومن ثم فسياق الآية بما فيه من حديث عن سؤالهم عن وقت الساعة وأن الله هو الذي يأتي بها وأن مجيئها بغتة كل ذلك لنفي العلم بالقول: (علمها عند الله) وليس لنفي فقههم ذلك القول وتدبره، لأنهم لم يسألوا عن الحكمة من استئثار علم الله بها[2].

﴿الخلاصة﴾

من خلال ما سبق عرضه حول الآية الكريمة نرى أنها قد اشتملت على موضع التقديم وهو تقديم الجار والمجرور (لوقتها) على الاستثناء (إلا هو) والسر هو التنبيه من أول الأمر على أن تجليتها ليست بطريق الإخبار بوقتها بل بإظهار عينها ف وقتها الذي يسألون عنه . كما يتجلى لنا أن التقديم جاء ليفي بحق المقام ومقتضيات السياق – كما مر –.

❁❁❁❁

(1) ينظر: التفسير البلاغي الاستفهام في القرآن الكريم، مرجع سابق، جـ ١ ، صـ ٤٣١.

(2) ينظر: العلم والفقه والمعرفة . فقه دلالتهما واستعمالها في القرآن الكريم، مرجع سابق، صـ ٦٩.

﴿الموضع الرابع﴾

قال – تعالى –: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾[1].

يقول الإمام أبو السعود – رحمه الله –: (أم لهم أيد يبطشون بها...) وتأخير هذا عما قبله لما أن المشي حالهم في أنفسهم والبطش حالهم بالنسبة إلى الغير.

وأما تقديمه على قوله ـ تعالى ـ (أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) مع أن الكل سواء في أنها من أحوالهم بالنسبة إلى الغير فلمراعاة المقابلة بين الأيدي والأرجل، ولأن انتفاء المشي والبطش أظهر والتبكيت بذلك أقوى. وأما تقديم الأعين فلما أنها أشهر من الآذان وأظهر عيناً وأثراً) [2].

﴿ موضع الشاهد في الآية ومغزاه ﴾

من خلال ما ذكره الإمام أبو السعود ـ رحمه الله ـ نجد أنه قد أشار إلى ثلاثة شواهد للتقديم وهي:

الأول: تقديم الأرجل على الأيدي في قوله: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ﴾.

الثاني: تقديم الأرجل والأيدي على الأعين والآذان.

---

(1) الأعراف، الآية: ١٩٥.

(2) تفسير أبي السعود، جـ ٣ ، صـ ٣٠٧.

الثالث: تقديم الأعين على الآذان في قوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾.

وقد أشار إلى سر التقديم في كل موضع ـ كما سبق ..

﴿ الدراسة والتحليل ﴾

تأتي الآية الكريمة في سياق الحديث عن المشركين وأصنامهم ووصفها بالعجز(١).

ومن ثم فالمقام في الآية الكريمة لتحدي المشركين العابدين للأوثان. حيث تأتي هذه الآية تأكيداً لما تضمنته الجملة قبلها من أمر التعجيز وثبوت العجز؛ لأنه إذا انتفت عن الأصنام أسباب الاستجابة تحقَّقَ عجزُها عن الإجابة، وتأكَّد معنى أمر التعجيز المكني به عن عجز الأصنام وعجز عَبَدَتِها) (٢).

ومن هنا فقد بنى النظم على الاستفهام في قوله: (ألهم) وهو استفهام إنكاري الغرض منه التعجيب من حالهم، وقد أفاد الاستفهام هنا تبكيت عَبَدَةِ الأصنام إثر تبكيتهم وتأكيد ما يفيده الأمر التعجيزي من عدم الاستجابة ببيان فقدان آلاتها بالكلية؛ فإن الاستجابة من الهياكل الجسمانية إنما تُتَصَوَّر إذا كان لها حياة وقوى محركة ومدركة، وما ليس له شيء من ذلك فهو بمعزل من الأفاعيل بالمرة(٣).

---

(١) الأعراف، الآيات: ١٩٠ ـ ١٩٨.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، جـ ٩ ، صـ ٢٢٢.

(٣) ينظر: تفسير البحر المحيط جـ ٥ ، صـ ٢٥١، وتفسير أبي السعود، جـ ٣، صـ ٣٠٦، وتفسير التحرير والتنوير، جـ ٩ صـ ٢٢٢.

ولذا أوثر تقديم المسند على المسند إليه للاهتمام وانتفاء الملك الذي دلت عليه اللام[١]، كما أوثر توجيه الإنكار إلى كل واحد من هذه الآلات الأربع على حدة، تكريراً للتبكيت وتثنية للتقريع استناداً بأن انتفاء كل واحدة منها بحيالها كافٍ في الدلالة على استحالة الاستجابة[٢].

وقد روعي إسناد صفات العقلاء للأصنام ـ من الجوارح الأربع (يمشون ـ يبطشون ـ يبصرون ـ يسمعون) وهو من قبيل المجاز المرسل وعلاقته اعتبار ما كان ونفي هذه الأشياء باعتبار ما هو كائن، كما روعي تعقيب الجوارح بوظائفها احتراساً لدفع ما يُتَوَهَّم ثبوتُه، فقد يكون للتماثيل أرجل وأيد وأعين وآذان لكنها لا تمشي ولا تبطش ولا تبصر ولا تسمع، ولولا إضافة وظائفها إليها في سياق الإنكار والنفي لصح أن يكون الجواب بالإيجاب. ومن ثم فالإنكار فيها مسلط على المعتقدات وهي الأرجل، والأيدي، والأعين، والآذان، وعلى القيود وهي (المشي ـ البطش ـ الإبصار ـ السمع) [٣].

وقد أوثر تقديم الأرجل على الأيدي والأيدي على الأعين، والأعين على الآذان لأهمية المقدّم على المؤخر بالتدريج. فليس لما يعبدونه قدرة على السير لنفعهم، ولدفع الضر عنهم، ولا قدرة لهم على البطش بأعدائهم، ولا يرونهم أين هم، ولا يسمعون لهم دعاءً. يعني أنهم لا يساوون شيئاً إلا الصفر المنفرد.

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور –رحمه الله–(وترتيب هذه الجوارح الأربع على حسب ما في الآية ملحوظ فيه أهميتها بحسب الغرض، الذي هو النُّصرة والنجدة، فإن الرجلين تسرعان إلى الصريخ قبل التأمل، واليدين تعملان عمل النصر

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، جـ ٩ ، صـ ٢٢٢.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود، جـ ٣ ، صـ ٣٠٦.

(٣) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، مرجع سابق، جـ ١، صـ ٤٣٧.

وهو الطعن والضرب، وأما الأعين والآذان فإنهما وسيلتان لذلك كله فأُخِّرا، وإنما قدم ذكر الأعين هنا على خلاف معتاد القرآن في تقديم السمع على البصر ... لأن الترتيب هنا كان بطريق الترقي) [1].

هذا مع ما يشي به تنكير (أرجل . أيد . أعين . آذان) من دلالة على التحقير، أي: ليس لهم شيء من هذه المذكورات، ولو كان تافهاً حقيراً، وما يشى به إعادة فعل الأمر (قل) من دلالة على الاهتمام البالغ بالمقول، ولوجوب مواجهة المشركين بهذا الإفحام والتحدي. ومن ثم فالأمر في (ادعوا) للسخرية بهم ولتحسيرهم وتفجيعهم[2]؛ ولذا أتبعه بقوله (ثم كيدون) زيادة في السخرية منهم والاستهزاء بهم ولإظهار عجزهم وعجز آلهتهم. وقد أوثر عطف طلب الكيد على دعوة آلهتهم بـ (ثم) لمنحهم هدنة الدعوة والتجميع لما في (ثم) من التراخي، وجاء عطف المبادرة بالكيد بحرف (الفاء) لما فيه من الفورية نكاية بهم واستخفافاً بكيدهم[3].

وهذا حديث الواثق بنصر الله أمام ركام الباطل وتجمعاته: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[4].

([1]) تفسير التحرير والتنوير، جـ ٩، صـ ٢٢٣.

([2]) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، مرجع سابق، جـ ١، صـ ٤٣٨.

([3]) ينظر: المرجع السابق، الجزء نفسه، الصحيفة نفسها.

([4]) الإسراء، الآية: ٨١.

﴿ الخلاصة ﴾

من خلال ما سبق عرضه حول الآية الكريمة نجد أنها قد اشتملت على ثلاثة شواهد للتقديم وهي: تقديم الأرجل على الأيدي، والأيدي على الأعين، والأعين على الآذان. والسر في ذلك هو الاهتمام بالمقدم؛ كما يتجلى لنا بوضوح أن التقديم في المواضع الثلاثة جاء ليفي بحق المقام ومقتضيات السياق – كما مر –.

الخاتمـــــة

الحمدُ للهِ علي توفيقِه، وعظيمِ إحسانِه ومَنِّه، والصلاةُ والسلامُ علي سيدِّنا مُحِمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِه.

أما بعد،،،

فقد تمَّ بحمدالله – تعالي – بحثُ بعضِ أسرارِ التقديم والتأخير في سورة الأعراف من خلال تفسير أبي السعود العمادي – دراسة بلاغية تحليلية، وكان من الجدير بالذكر تسجيلُ أهمِّ النتائج، والتي يمكن ضبطُها وإيجازُها في الأمورِ الآتية:

أولًا - إنَّ سياقاتِ القرآن الكريم تحمل دقائقَ نفيسة ولطائفَ بالغة لأسلوب التقديم والتأخير، ويتنوع هذا الأسلوب وتتغير دِلالتُه تَبَعَاً للسياق وحاجةِ المقام، فما كان لكلمة أن تتقَّدم مكانها دونَ غايةِ معنوية وهدفٍ دِلالِيّ تريد أن تُثبِتَه في الجملة، والقرآنُ الكريم كلامُ الله المعجِز وبيانُه المُحْكَم يشتمل علي هذه الأساليب التي ينبغي الوقوفٌ علي أسرارِها ودلائِلها.

ثانيًا - من خلال الوقوف علي بعض أسرار التقديم والتأخير في سورة الأعراف ظهر لنا بوضوح أن القرآن الكريم قد بلغ في هذا الفن – كما في غْيِره – الذِّرْوةَ في وضع الكلمات الوضعَ الذي تستحقه في التعبير، بحيث تستقر في مكانها المناسب، كلٌّ ذلك مراعي فيه سياقُ الكلام والاتساقُ العام في التعبير علي أكملِ وجهٍ وأبهى صورة.

ثالثا - حَفَلَتْ سورة الأعراف بكثيرٍ من صور التقديم (تقديم المسند إليه – شاهدان) – تقديم المتعلِّقات علي عواملها أو تقديم بعضها علي بعض (سَبْعَة عَشَرَ

شاهِداً) – تقديم معنـي علـي معنـي (سِتَّةَ عَشَرَ شاهِداً)، وذلك من خلال ثلاثةٍ وعشرينَ موضعًا جاء التقديمُ فيها حافلا بالأسرار التي تفي بحق المقام ومقتضيات السياق – كما مَرّ–.

رابعًا - بعد الوقوف علي بعض أسرار التقديم والتأخير في سورة الأعراف من خلال تفسير الإمام أبي السعود – رحمه الله – تجلَّي لنا بوضوح أن الإمام أبا السعود كان له جَوْلاتٌ غنيَّة جِداً في فهم موضوع التقديم في القرآن الكريم والكشف عن أسراره المختلفة، حيث عالجَ التقديمَ بمنهجٍ حُرّ واسعِ النظرة؛ فقد كان – رحمه الله – مُولَعاً بتقصِّى الأسرار التي يفيدها التقديم، فتراهُ يثبتُ لك في الموضع الواحد سرا أو سرين أو ثلاثة، كما أنه أشار إلي نوعين من أنواع التقديم لم يتطرق إليهما البلاغيون، وهما : تقديمُ معني علي معني، وتقديمُ قصة علي قصة، ومن ثَمَّ فطريقته هذه جديرة بالتقدير لفهم أسرار الكتاب الكريم وفهم مقوِّمات الجمال الفني فيه.

والدراسةُ بعد هذا توصِي الباحثين والدارسين أن يوجِّهوا قبلتهم نحو بلاغة التقديم والتأخير في كتاب الله – عز وجل – من خلال هذا السِّفْر الماتِع للإمام أبي السعود (إرشادُ العقلِ السليم إلي مزايا القرآن الكريم) فهو ميدانٌ خصب، مازال بحاجة إلي دراسات كثيرة وَوَقَفَاتٍ طويلةٍ متأنيِّة لتأمُّل أبعادِها، وسَبْر أغوارِها، وتذوِّق جمالياتها، ومن ثم الكشفُ عن قيمتها ومظاهرِ بلاغتها. مستلهمين في ذلك المنهجَ التحليلي الذي يستنبط الخصائص، ويحرِّر الضوابط، ويجدِّدُ الرؤى، ويوسِّعُ الآفاق، وَينفُثُ في روع هذا العلم التطويرَ المستمر الذي يواكب تجدُّد العطاء والثراء في شتَّي مناحي الحياة.

كما تدعو الدراسةُ الباحثين إلي عدم البَتَّ والقطع في تحديد الغرض البلاغي للتقديم في آيةٍ من الآيات؛ لأن الأمر في نهاية المطاف محضُ اجتهادٍ وتأمُّلٍ، ويبقي المعني الحقيقي للآية عند الله – سبحانه وتعالي – وما أوتينا من العلم إلا قليلًا.

وآخرُ دعوانا إن الحمدُ للهِ ربِ العالمين

الباحث/ د. الحسن محمد أبو ضيف عبدالمجيد

فهـرس المصـادر والمراجـع

- القرآنُ الكريمُ – جَلَّ مَنْ أَنزلَه –.
- أدواتُ التشبيه دِلالاتُها واستعمالاتُها في القرآن الكريم، د/ محمود موسي حمدان، مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.
- إرشادُ العقلِ السليم إلي مزايا القرآنِ الكريم، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.
- الإعجازُ البلاغيُّ للقرآن الكريم – دراسةٌ وتطبيقٌ، محمد السيد موسي، مكتبة الإيمان – المنصورة، الطبعة الأولي ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.
- الأعلام، خير الدين الزِّرِ كلي، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الخامسة عشرة ٢٠٠٢م.
- أنوارُ التنزيل وأسرارُ التأويل، القاضي البيضاوي، دار البيان العربي–مصر، بدون تاريخ.
- البحر المحيط، أبو حيَّان الأندلسي، دار الفكر –بيروت،١٤٠٣هـ–١٩٨١م.
- البدرُ الطالع بمحاسنِ مَنْ بعدَ القرنِ السابع، محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة – بيروت، بدون تاريخ.
- البرهان في توجيهِ متشابه القرآن، الكِرْمَاني، تحقيق: عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولي ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.
- البرهان في علوم القرآن، الزَّرْكِشي، تخريج وتعليق: عبدالقادر عطا، دار الكتب التعلمية – بيروت، الطبعة الأولي ١٩٨٥م.

- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د/ فاضل السامِرَّائِي، دار إعمار – عمان، الطبعة الرابعة ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.
- تأويلُ محاسنِ القرآن، القاسِمِيّ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولي ١٤١٨هـ.
- التحريرُ والتنوير، الشيخ/ محمد الطاهر ابن عاسور، الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤.
- التفسيرُ البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، د/ عبدالعظيم المطعني، مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م.
- تفسيرُ الشعراوي (الخواطر)، الشيخ/ محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم ١٩٧٧م.
- تفسيرُ المَنَار، الشيخ/ محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م.
- جامعُ البيان عن تأويلِ آيِ القرآن، الإمام ابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة – القاهرة، الطبعة الأولي ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.
- حاشَيةُ الشِّهَاب علي تفسير البيضاوي، دار صادر – بيروت، بدون تاريخ.
- خصائصُ التعبير القرآني وسِماتُهُ البلاغيّة، د/ عبدالعظيم المطعني، مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة الأولي ١٩٩٢م.
- الدُّرُ المَصُون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، تحقيق: أحمد محمد الخَّراط، دار القلم – دمشق، بدون تاريخ.
- دلائلُ الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني، تصحيح وتعليق: الشيخ/ محمد رشيد رضا، دار المعرفة – بيروت، ١٩٨١م.

- دِلاَلاَتُ التقديم والتأخير في القرآن الكريم – دراسة تحليلية، د/ محمود منير المسيري، تقديم: د/ عبد العظيم المطعني، ود/ علي جمعة، مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.
- رُوح البيان، إسماعيل حقِّي (أبو الفداء) دار الفكر – بيروت، بدون تاريخ.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولي ١٤١٥هـ.
- سُنَنَ الدَّارِميّ، تحقيق: حسين سليم أحمد، دار المغني – السعودية، الطبعة الأولي ١٤١٢هـ – ٢٠٠٠م.
- الصِّناعتيْن (الكتابة والشعر) الإمام أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، الطبعة الأولي ١٩٥٢م.
- طبقاتُ المفسرين، الأَدْنَهْ وِي، تحقيق: سليمان بن صالح الخَزِّي، مكتبة العلوم والحكم – السعودية، الطبعة الأولي ١٤١٧هـ – ١٩٩٧.
- العِقْدُ المنظوم في ذكرِ أفاضلِ الروم، علي بن القاضي أوزن بالي، تحقيق: أحمد عبد الوهاب الشرقاوي، الطبعة الأولي ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م.
- العلمُ والفقهُ والمعرفة – فْقهُ دِلاَلتِهِما واستعمالِهِما في القرآن الكريم، د/ محمود موسي حمدان، مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة الأولي ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.
- فتحُ البيان في مقاصدِ القرآن، القِنَّوْجِيّ، تقديم ومراجعة: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية – صَيْدَا – بيروت، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢.

- فتحُ الرحمن بكشف ما يلتبسٌ في القرآن، الشيخ/ زكريا الأنصاري، تحقيق: بهاء الدين عبدالموجود، تقديم ومراجعة: أ/د/ علي معبد فرغلي، دار الكتاب الجامعي – أسيوط، بدون تاريخ.
- الفُروق الُّلغَوِيّة، الإمام أبو هلال العسكري، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة – القاهرة، بدون تاريخ.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق – مصر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨١م.
- الكتاب، سِيبَوْيه، تعليق: د/ إميل يعقوب، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولي١٩٩١م.
- الكشَّاف عن حقائِق التنزيل وعيونِ الأقاويل في وجوهِ التأويل، محمود بن عمر الزَّمخْشَرِي، ضبط وتصحيح: مصطفي حسين أحمد، دار الريان التراث – القاهرة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- كَشْفُ الظُّنون عن أَسَامِي الكتب والفنون، حاجِي خليفة، مكتبة المُثَنَّي – بغدد، ١٩٤١م.
- الكواكبُ السائِرة بأعيان المِئةِ العاشِرة، نجم الدين الَغزِّي، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولي ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- الُّلباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، تحقيق: الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ/ علي محمد معَّوض، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولي ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- لسانُ العرب، ابنُ منظور المصري، دار المعارف – مصر، بدون تاريخ.

- مدارِكُ التنزيل وحقائقُ التأويل، الإمامُ النَّسفِي، تحقيق: يوسف علي بديوي، مراجعة وتقديم: مُحْي الدين ديِب مِسْتُو، دار الكلم الطيب – بيروت، الطبعة الأولي ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
- مسند أحمد، الإمام أحمد ابن حنبل الَّشْيَباني، تحقيق: شُعَيْب الأرْنَاؤُوط، وعادل مُرِشد، وآخرون، إشراف د/ عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الرسالة – مصر، الطبعة الأولي ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.
- معاني القرآن وإعرابهُ، الزَّجَّاج، تحقيق: عبد الجليل شلبي، عالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولي ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
- مُعْتَرَكُ الأقران في إعجازِ القرآن، الإمام السيوطي، ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولي ١٩٨٨م.
- معجمُ المفسِّرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، عادل نُوَيْهِض، تقديم: الشيخ/ حسن خالد، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ – ١٩٨٨م.
- مِفْتَاحُ العلوم، الَّسكَّاكِي، بدون تاريخ.
- المُفْرَدات في غريبِ القرآن، الراغبِ الأصفهاني، مراجعة وتقديم: وائل أحمد عبدالرحمن، المكتبة التوفيقية – القاهرة، الطبعة الرابعة ٢٠١٥م.
- نَظْمُ الدُّرَر في تناسبُ الآيات والسور، الإمام البِقَاعِي، دار الكتاب الإسلامي – القاهرة، بدون تاريخ.
- نِهايةُ الإيجاز ودِرَايةُ الإعجاز، الفخر الرَّازي، تحقيق ودراسة: د/ بكري الشيخ أمين، دار العلم الملايين – بيروت، الطبعة الأولي ١٩٨٥م.

**** ثانيا: الرسائلُ العِلمية:**

- **بلاغة النظم القرآني في استعمال البصر والنظر والرؤية بين السياق والدلالة، رسالة ماجستير للباحث/ الحسن محمد أبو ضيف كلية اللغة العربية بأسيوط – ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.**